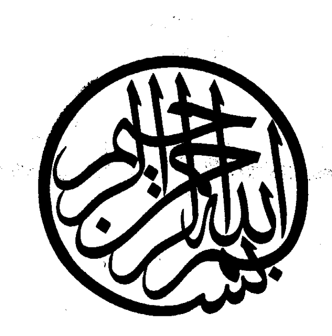
الدعــوة

بين

كيد الطغاة .. وحكمة الدعاة

د. محمود محمد محمد عماره
أستاذ بجامعة الأزهر

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة



الدعـــوة

بين

كيد الطغاة .. وحكمة الدعاة

الطبعة الأولى

١٩٩٩ م - ١٤١٩ هـ

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف: ٣٤٣١١٥ ص. ب: ١٦٧

تمهيد

من تدبير الله تعالى أن يكون للحق أعداؤه الذين يقعدون له كل مرصد. فى محاولة للقضاء عليه.

ذلك بأن الحق معدن الخير والجمال.. وأعداؤه الذين عُطلوا من حلية الكمال والجمال لا يطيقون رؤيته.

لأنه يذكرهم بما فيهم من نقص وقبح .. يجعلهم سبة بين الناس.. حتى فى نظر أنفسهم.

ولأنه يتجاوب مع نداء الفطرة فيهم.. تلك الفطرة النزاعة أساسا إلى الكمال والجمال.. وإذن.. فهم من فطرتهم ونداء الحق لهم.. واقعون بين شقى الرحى .. وليس إلى الخروج من سبيل إلا بتنحية الحق .. فرارا من هذا العذاب المقيم.

ولقد كان أعداء الأمس من الكفار أصرح من أعداء اليوم:

لقد واجه الأولون الحق.. على أرض مكشوفة..

ولقد خَضَّبت الصحراء.. دماء .. وتناثرت أشلاء..

*** أما أعداء اليوم:**

فهم يذبحون.. ولكن بغير سكين.. وبلا دماء:

يلقونك بالقول المعسول.. بينما هناك المال المبذول يسحب البساط من تحت قدميك..

هذا المال المرصود لتنفيذ المخطط المرسوم بغية القضاء على الإسلام وتدمير أهله..

وإذا كان هذا من تدبير الحق سبحانه وتعالى .. فإن من حكمته عز وجل أن ينصر الحق فى النهاية .. شريطة أن يعد المسلمون أقصى ما يستطيعون من قوة.. وأقسى ما يتحملون من تدريب..

ونقرأ فى المعنى الأول قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1].

ونقرأ فى المعنى الثانى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[2].

أجل سوف يرصدون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فذرهم وما يرصدون.

وسوف يفاجأون بالنهاية التى لم تخطر لهم على بال:

أ - سوف يدمر الله بيد المؤمنين أسلحتهم.. فيخسرون أموالهم..

ب - ثم يضاعف الله عذابهم النفسى وبالحسرة الآخذة بخناقهم على ضياع آمالهم الرامية إلى اطفاء شعلة الحق.. والتى زكت بالجهاد فى سبيل الله.

جـ - ثم يكون الحساب العسير نار السعير «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا»

وهكذا .. يضيع المال.. ويسوء المآل.

وهنا.. وعلى ضوء الواقع المر .. يمكن أن نشير إلى فداحة هذه الآثار على واقع المسلمين ومستقبلهم.

فلم يقتصر الأمر .. أمر الأعداء على إنفاق أموالهم ليصدوا عن سبيل الله.

بل إنهم أيضا يمكرون حين يوقعون بيننا.. لنقتتل .. وبسلاحهم الذى ندفع ثمنه لنحقق لهم فى نفس الوقت ما يريدون.. وبأموالنا نحن المسلمين المتناحرين.. وينكشف الستار عن هذه الحقيقة المرة:

ينفقون أموالهم..

---

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) الأنفال: ٣٦.

وأموال المسلمين أيضا . .

ليصدوا عن سبيل الله

وياليت قومى يعلمون

أما عن مسئولية الأمة فنقرأ قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[١].

ولقد جاء هذا الكتاب كشفا لمؤامرات أعداء الإسلام . . منذ فجر الدعوة الإسلامية وكيف تصدى الإسلام لها . . فرد كيدها فى نحورها . .

ثم . . كيف تحدرت مؤامرات الاعداء . . فورثها أحفاد لهم . . الأمر الذى يفرض على الأمة الإسلامية أن تتحمل مسئولياتها فى صد العدوان . . اقتداء بسنة رسول الله ﷺ ومن تبعه بإحسان . . لنفوز فى النهاية بسنته فى النصر والتأييد.

والله وحده المسئول أن يبلغنا المأمول.

د محمود محمد عماره

(١) الأنفال: ٦٠.

تاريخ الحياة في آية كريمة

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

وحين نتأمل الآية الكبيرة تطالعنا بهذه الحقائق:

١ ـ استقامة البشرية على النهج زمنا كانت فيه شيئا مذكورا.

قا ابن عباس رضي الله عنه يحدد هذه الفترة:

(كان بين نوح وآدم عشرة قرون. كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)[2].

ثم تطور الاختلاف إلى انحراف طفح فيه الكيل واستشرت العلة . . فكان بَعْثُ الرسل والأنبياء طوق النجاة من هذا الطوفان.

٢ ـ وكان من رحمة الله تعالى إنزالُهُ مع النبيين كتبا تعين على أمر الله وتأخذ بيد الحائرين إلى شاطئ النجاة.

٣ ـ وكان الظن بأهل العلم أن يكونوا أسرع الناس إلى قبول الحق بل والدعوة إليه. وفاء بحق النعمة التى سبقوا البشر إلى إدراكها. ولكن القذيفة أتت من منطقة الأمان؟

فلما جاءهم ما عرفوا . . كفروا به . .

لقد كان المتوقع أن يكون ذكاء العلماء في خدمة الدعوة . . بيد أنهم لم يكونوا عند حسن الظن بهم . . فعارضوها بل وحاربوها.

(١) البقرة: ٢١٣.　　(٢) ابن كثير.

٤ ـ وليس العيب فى الدعوة . . وإنما العيب فى قلوبهم:

فبدافع من الحسد الباغى ناصبوها العداء . .

ولو كانوا متأولين أو مجتهدين لكان لهم بعض العذر . . لكن ما حيلتك أمام الحاسد الذى لا يرضى عنك إلا بزوال نعمة الله عليك.

٥ ـ ولقد كان الرد الإلهى عليهم حاسما قاصما:

لقد هدى الله إلى الحق قومًا تعرضوا لمساقط الغيث فأحيا الله به قلوبهم.

لم يكن فى قلوبهم غرض ولا مرض . . فوصلوا بإذنه إلى الإيمان. واهتداء هذا الفريق شهادة الهية بسلامة الفطرة عندما تأخذ سمتها فى الاتجاه الصحيح . . بعيدا عن كل مؤثر داخلى أو خارجى. ثم هى فى نفس الوقت عزاء للدعاة من بعدهم يؤكد لهم أن الجو لن يخلو يوما للجبارين يعيثون فى الأرض فسادا . .

ولابد أن تتحدث الفطرة الإنسانية النقية عن نفسها بألسنة دعاة يلوحون من بعيد . . كما يلوح المنار على الشاطئ النائئ. فيستشعر الملاح التائه أملا يعيد إليه التوازن . . ليُبحر إلى الشاطئ الآمن من جديد.

٦ ـ وعلى مدارالزمان يسير موكب الإيمان . . تاركا على جبين الحياة علامات . . وخطوطا . . وشواهد . . هى مجموعة الدروس التى نحاول اليوم استخلاصها لنسير على هداها.

* خطوط رئيسية

هناك حقائق ثابتة فى حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام . . هى القاسم المشترك بينهم جميعا . . وإن اختلفت تفاصيل رسالاتهم باختلاف زمان كل منهم ومكانه:

١ ـ إنهم بشر من البشر:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾(١).

ولكنها البشرية المحكومة بالوحى. المعصومة به من الخطأ.

---

(١) يوسف: ١٠٩

ب ـ الاكتفاء الذاتى «التجرد» فلا يطلبون على التبليغ أجرا:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

جـ ـ يخاطبون أقوامهم بلغاتهم:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2].

د ـ يؤيدهم ربهم بالمعجزات الشاهدة بصدقهم فيما يبلغونه عنه سبحانه وتعالى.

هـ ـ يدعون إلى التوحيد . وما يثمره التوحيد من فضائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[3].

و ـ معارضة الكفار لهم ـ وبخاصة الملأ منهم.. وتفننهم فى إيذائهم والاستهزاء بهم ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4].

ز ـ والعاقبة دائما للمتقين:

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[5]. ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

وهكذا: بعد أن أعظم الجدال واستطال .. يحسم الحق تعالى المعركة لصالح دعاة الحق..

وهى حقيقة لابد أن نذكرها دائما .. قبل أن يشوش عليها الماكرون..

(وكم مرة ألقى بنا فى قاع البئر العميق..

ثم قيل عنا كذبا: أكلنا الذئب.

وتهددتنا الوحوش البشرية.. وآلات الدمار العصرية..

---

(١) سبأ: ٤٨. (٢) إبراهيم: ٤.

(٣) الأنبياء: ٢٥. (٤) الزخرف: ٦: ٧.

(٥) إبراهيم.

وفى ساعة العسرة: امتدت إلينا يد الله تعالى.. لما اقتربنا من الحقيقة.. وأمسكنا بالحبل المتين]

[بشرية الأنبياء]:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول بشرا من جنس من يدعوهم إليه سبحانه. وفى ظل من هذا التجانس تتوحدالمشاعر.. وتطوى مسافات الخلف.. أى أن - الظروف تتهيأ لتقول الدعوة كلمتها.. وتبذر بذرتها فى أرض مستعدة للإثبات. يقول الحق سبحانه:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

فالرسول ﷺ بشر وعربى من جنس القوم.. وبهذه المجانسة كان عميق الإحساس بما هم فيه من ضلال.. وفى نفس الوقت شديد الرغبة فى تخليصهم مما هم فيه من عذاب.. يدفعه إلى ذلك ما توفر له من صفات البر والخير وعلى رأسها: الرأفة والرحمة..

ولو تأملنا القراءة الأخرى **﴿مِّنْ أَنفَسِكُمْ﴾** بفتح الفاء.. وقفنا على بعد آخر يتم به الرسول كمالا:

فقد اختاره الحق تعالى من أعرق القبائل.. وأطهر الأصلاب.. ولا يخفى ما لهذا النقاء من تأثير فى البلاغ..

فليس هو واحدا من الجماهير مغمورا.. مشغولا بلقمة العيش عن هموم أمته.. عاجزا عن تكميل نفسه.. بَلْهَ غَيْرِه..

لكنه خيار من خيار.. ففاض من معدنه الحق نهرا من الطُّهْرِ يَغْسل أدران الحياة والأحياء.

وإذن: فالقراءتان كلتاهما: بضم الفاء.. وفتحها. ترسمان الصورة المثلى لرجل الدعوة:

---

(١) التوبة: ١٢٨.

فلأنه منهم فهو أجدر أن ينقل إليهم وحى الله تعالى .. باللغة التى يفهمونها. ولأنه من أشرفهم: فهو بمعدنه الشريف النبيل قَمين أن يحملهم على الإذعان بالطريقة المناسبة له: شرفا ونبلا.

فإذا علمنا أن ذلك كله يتم تحت إشراف الوحى الأعلى.. تبين لنا كيف تمت كلمة ربك صدقا وعدلا.. فاكتمل العقْد .. واجتمعت أسباب الهداية لمن شاء أن يتخذ إليها سبيلا.

*** الرسول قمة الكمال البشرى :**

يقول الحق سبحانه:

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1].

فالرسول ـ من الناحية الخُلُقية ـ طراز فريد من البشر.. بل هو قمة الكمال البشرى. ولأن الرسالة من الخطورة بمكان فلابد للرسول من رصيد خلقى يكون منطَلَقَهُ فى الدعوة إلى الله تعالى ..ثم هو عدته الحقيقية عند منازلة الأعداء:

يقول سبحانه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[2].

فالرسول ﷺ صاحب خلق .. وخلق عظيم .. ثم هو متمكن منه راسخ القدم فيه.. كما يفيد حرف الجر «على».

وإذا نازل أعداءه غدا .. فسوف يبصر الطرفان لمن يكون النصر الذى سوف ينعقد لواؤه لصاحب الخلق العظيم .. الذى لا يتم انتصارٌ إلا به.

ولقدكانت هذه سنته تعالى فى رسله حين اختارهم سبحانه ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾[3] لتكون البيئة النظيفة عونا لهم على البلاغ بما تتركه من انطباعات على العقل والقلب. إلى جانب إعداد الله تعالى لهم إعدادا يَصْعَدُ بهم قمة الكمال البشرى. يقول ابن كثير فى تفسيره للآية الكريمة:

---

(١) الحج: ٧٥. (٢) القلم: ٤: ٥.
(٣) يوسف ١٠٩.

(المراد بالقرى: المدن .. لا أنهم من أهل البوادى الذين هم أجفى الناس طباعا. وهذا هو المعهود المعروف: أن أهل المدن أرق طباعا. وألطف من أهل سوادهم.

وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى.

ولهذا قال الله تعالى ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾.

ويزيد القرطبى هذا المعنى تفصيلا بقوله:

(لم يبعث الله نبيا من أهل البادية. لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو. ولأن أهل الأمصار أعقل وأحكم. وأفضل. وأعلم).

وفى هذا إشارة إلى مسئولية الأمة عن تكوين الدعاة منذ نشأتهم الأولى.. على تقوى من الله ورضوان .. وأن التفوق العلمى لا يغنى وحده عن الحق شيئا. ما لم تساوقه تربية نظيفة تزامل المرشح لدعوة زمانا قد يطول ليتمكن من مباشرة مهمته بنجاح.

وإذا كنا نُعدّ للفرق الرياضية معسكرات نأخذهم فيها بطابع التقشف وحب النظام فإن الإنصاف يتقاضانا أن نأخذ الدعاة بلون من الإشراف تتفتح فيه مواهبهم فى جو نظيف عفيف..

* اعتراض الكفار على بشرية الرسول

كان الايمان بالله تعالى هو الموقف الفكرى السليم .. الذى تستقيم به علاقة المرء مع ربه.. وبالتالى تصح معاملته للناس والأحداث من حوله.

ولكن المعاندين الذين خربوا بالفكر باطنهم .. يضيفون إلى هذه الجريمة .. خطيئة الاعتراض على تلك النعمة وهى: بشرية الرسول.

وذلك.. هروب من البحث الموضوعى للدعوة .. ولكن الأمر كَمَا قيل:

(فهذا شىء لا يتكلفونه أبدا. ولا تتسع له أوقاتهم فالأوقات للشهوات .. حكمة فى قاموس المترفين).

*** وظيفة الرسول:**

إن وظيفة الرسول هي:.

أ - البلاغ.

ب - القدوة.

ولذلك نفى القرآن الكريم ألوهية عيسى أو بنوته لله سبحانه وتعالى. لأن العابد في هذه الحالة يقول:

هو إله أو ابنه. فكيف أقلده؟

وأنت لا تقلد الأسد الهصور. وإنماتقلد الفارس الجسور.

وفيما يتعلق بالاعتراض على بشرية الرسول نقرأن قوله تعالى:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وأسجل هنا ما بقى فى ذاكرتى من تعليق المرحوم الدكتور محمد جلال:

استدل الرسل على خصومهم بما يلى فى وجوب نفى الشك:

أ - دليل العقل.

ب - شاهد الفطرة.

جـ - دواعى منفعة المدعوين لغفران ذنوبهم وإطالة عمرهم. وكان الواجب على الخصوم إبطال هذه الحجج. ولكنهم لجأوا للمهاترات وتقليد الآباء ومن ثم.. بقيت حجج الأنبياء سيدة الموقف. وظل الخصوم محجوجين بها.

---

(١) إبراهيم ١٠: ١١.

وسيظل الخصوم على مدار الزمان حيارى ما ألغوا عقولهم. وفضلوا أن يظلوا مقلّدين آباءهم الذين لم يكونوا يعقلون ولا يهتدون.. وهكذا يفعل التقليد بأهله.:

يجعل من وجودهم كما مهملا. - لا خير فيه:

ذلك بأن الاعتياد على التبعية يسلب طاقة الرفض ويطفئ شعلة الضمير فى كيان المقلد لأنه يعقد بين العقل والسلوك عقدا من الرضا والاستسلام.

وفيما يتعلق بالاعتراض على بشرية الرسول نقرأ قوله تعالى أيضاً:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[1].

لقد صدر تكذيبهم للرسول عن مسوغات هى:

أ - كان بشرا.

ب - مثلهم.. ومن جنسهم.

جـ - وكان واحدا.

فالمفروض من وجهة نظرهم - أن يكون الرسول ملكا أو جنيا.. أو على الأقل إذا كان بشرا أن يحظى بتزكية من ملك أو جنى ثم.. كيف يكون واحدا .. فردا.. ضعيفا؟

وإذا كان ولابد فمن المستبعد أن يكون واحدا منا نحن بالذات ربما كان الأبعد أولى بالاستجابة كمايفعل المسحورون بعقدة الأجنبى؟

ولو فرض وكان منا.. فَلِم لَمْ يقع الاختيار على رجل عظيم؟

وذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2].

وفى بيان هذه الحملة.. ورجعها إلى أسبابها يقول الحق سبحانه وتعالى:

(١) القمر: ٢٣: ٢٥.

(٢) الزخرف: ٣١.

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾[1].

إنه الظلم إذن.. هو الذى حملهم على هذا الضلال وهذا البهتان.. لقد ظلموا عقولهم فوضعوها فى غير موضعها.. فلما حاولت اكتشاف الحق أخطأت. لأن زاوية الرؤية لم تمكنهم من الإحاطة به.. وقد رد الله تعالى شبهتهم بأن بشرية الرسول سنة من سننه تعالى فى اختيار أصفيائه إلى خلقه.. والتى لا تتم الهداية إلا بها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[2].

إن أعراض البشرية لا تناقض وظيفتهم كسفراء لله تعالى إلى الخلق بالحق. بل إنها سبيلهم إلى الهداية كما قلنا .. ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾[3].

ولو استجيب لهم وجاء الأمر على ما تهوى أنفسهم.. فكان الرسول ملكا .. لبقى الإشكال بل إن الأمر يتزايد تعقيدا عما كان عليه:

فالناس بحكم طبعهم البشرى لا يُطيقون رؤية الملك فى صورته الحقيقية..

ومن ثم.. فلكى يتم البلاغ لابد من إرساله فى صورة رجل حتى يفهموا خطابه.. فإذا اعترضوا على بشريته لم يكن من المستطاع إقناعهم بأنه ملك فى صورة رجل .. وتعقد الموقف كما قلنا آنفا. وذلك قوله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[4].

فليس العجيب إذن أن يكون الرسول رجلا .. ولكن العجيب إنكار ذلك.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ

---

(1) الفرقان ٧: ٨.
(2) الفرقان: ٢٠.
(3) الأنعام: ٩.
(4) الأنبياء: ٨.

تُرْحَمُونَ﴾[1].

إن دعوة الرسول تحمل عناصر قبولها:

أ - إنها ذكر . . ينبهكم إلى ما ترسب فى فطركم من ميل إلى الحق.

ب - يجىء بها رجل قادر على تحمل المسئولية . . بحكم تكوينه . .

جـ - ثم هو منكم تعرفونه ويعرفكم . . وليس غريبا تنكرون منه وتعرفون . .

د - ودعوته نعمة . . من ربكم . . الذى تتقلبون فى نعمه الوفيرة والتى يتقاضاكم شكرها أن تستجيبوا لرسوله.

هـ - ثم هى دعوة تنشئ فى أنفسكم خوف الله تعالى . . والتسلح بتقواه . . وصولا إلى رحمته فى النهاية . .

فما هو المنكر فى هذه الدعوة؟ وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل. إن «المانع» من قبولكم هو فى الواقع «مقتض» لهذا القبول . .

ولقد كان هذه الانحراف المتمادى جديرا بالتنديد به . . على ملأ من الدنيا كلها من حيث كان ظلما ليس وراءه وراء . . وذلك قوله تعالى:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2].

أجل: لقد كان للناس عجبا: أن ينكر المشركون نبوة البشر . .

ثم يقرون بألوهية الحجر.

---

(1) الأعراف: ٦٣.

(2) يونس: ٢.

وجه النعمة فى بشرية الرسول

عندما يكون الرسول بشرا:

أ ـ فإنه يمثل مزاج القوم. فيصدقُ إحساسه ،حاجاتهم

ب ـ وإذن . . فهو يتجه بهم إلى ما يوائم مصالحهم . .

جـ ـ لا يكون غريبا عليهم. فتسهل مخاطبته والتلقى عنه

د ـ لا يحسون بمشقة فى الالتزام بطاعته.

ولكن الجاحدين رفضوا هذه النعمة بل اتخذوا منها ذريعة للسخرية والاستهزاء شاهدين على أنفسهم بالظلم.

لقد كفروا بنعمته تعالى حين جعل الرسول بشرا . . لماذا؟

لأنهم تعدوا على الحراس. والخدم والحشم. والاستعلاء بالسلطان واصطناع ـ أوضاع من الأبهة تبهر عيون الجماهير . .

فإذا رأوا ـ كما قيل ـ قيادة إلـهية تأكل من عرق جبينها.

(تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق)

قيادة لا تستذل نفسها. ولا تستغل أحدا . . إذا رأوا ذلك عارضوه وأنكروه. إنهم لا يحبون المشى هونا . . وإنما على الأشلاء والجماجم فى بيئة مخضبة بدماء الأبرياء. والغريب أنهم يقترحون أن يكون مع الرسول «نذير» . . أى أنهم لا يؤمنون إلا بسائق يَدُعُّهم إلى الإيمان . . دعًّا.

فالإسلام يريدهم أحرارا . . ويريدون أن يظلموا عبيدا.

ثم يقترحون أن تكون له جنة. أو كنز ليؤمنوا . . وما دروا أن الإيمان حينئذ سيكون بالجنة والكنز . . وليس بالرسول.

وإن امتلاك الرسول للثروة الهائلة لا يتسق وأهداف رسالته الاصلاحية. التى لا تستغرق فى نعيم الدنيا . . بل أنها ما جاءت إلا للتخفيف من حدة الإقبال

عليها. وإنك لتحس بتخاذل القوم حتى يتهمونه أخيرا بالسحر.

﴿إن تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾

وما هو من السحر فى شىء.. ولكنه الإحساس بالهوان يلجئهم إلى انتحال أباطيل هم أول الشاهدين ببطلانها. ولكنهم يريدون خداع الجماهير فى محاولة لصرفهم عن الإيمان بالحق. حتى لا تذهب بإيمانهم دولة المستكبرين.

[عندما يفقد المستكبرون ذاكرتهم]

ويأتى الرد الإلهى تعجيبا من هذا المنطق الغريب.. من هؤلاء القوم الذين أعجبوا قبل الرسالة بأمانة الرسول وصدقه ثم هاهم أولاء يتعجبون منه.. أخيرا؟ فهل كان صادقا أمينا معهم.. ثم إذا به حين يتحدث عن ربه يتخلى عن صدقه وأمانته؟

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال .. فضلوا..).

لقد ذهبوا فى التيه.. فلم تعد لهم قدرة على السمع .. ولا على الرؤية.. بينما الحق منهم غير بعيد. يناشدهم أن يفيقوا ليعلموا .. ويتعلموا.

صحيح أنه بشر مثلهم من لحم .. وعظم ودم..

ولكن النفخة العلوية جعلته خلقا آخر قادرا على الاتصال بالملأ الأعلى. وبهذه النفخة العلوية أسجد له تعالى الملائكة .. وسَعَتْ إليه الجن وجلست بين يديه ـ مجلس التلميذ .. وأسلم الجميع للإنسان قيادة العالم.. وريادة الركب إلى الله تعالى.. لقد نَسُوا فى غيبة الوعى وفقدان الذاكرة أن فى اختيار الرسول بشرا تكريما لهم فى شخصه.. وارتفاعا بالإنسان فوق مستوى المَلَك والجن .. ولكن بالإيمان . لا بالأموال والجنان.

*** يقول صاحب الظلال:**

(ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟ ماله بشر يتصرف تصرفات البشر؟

إنه الاعتراض المكرور الذى رددته البشرية عن كل رسول. كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان. المعروف لهم. المألوف فى حياتهم. الذى يأكل كما يأكلون ويعيش كما يعيشون.

كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه؟ وكيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه؟ وهم يرونه واحدا منهم من لحم ودم. وهم لا يوحى إليهم. ولا يعرفون شيئا عن ذلك العالم الذى يأتى منه الوحى لواحد منهم. لا يتميز فى شىء عنهم.. إنه التكريم الإلهى للإنسان يبدو فى هذه الصورة العجيبة. ولكن الذين لا يدركون قيمة هذا المخلوق. ولا حقيقة التكريم الذى أراده الله له. ينكرون أن يتصل بشر بالله عن طريق الوحى. وينكرون أن يكون واحد من هؤلاء البشر رسولا من عند الله. يرون الملائكة أولى بهذا وأقرب.

وإنها الحكمة الإلهية كذلك تبدو فى رسالة واحد من البشر إلى البشر. واحد من البشر يحس إحساسهم. ويتذوق مواجيدهم. ويعانى تجاربهم. ويدرك آمالهم ويعرف نوازعهم وأشواقهم. ويعلم ضروراتهم وأثقالهم.

ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم. ويسير بهم خطوة خطوة.

وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم. لأنه فى النهاية واحد منهم يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحى من الله وعون منه على وعثاء الطريق).

ثم يذكر صاحب الظلال وجها من وجوه النعمة فى بشرية الرسول؛ لأنهم قادرون على التأسى به. والنسج على منواله .. من حيث يصدرون معه عن طبيعة واحدة .. ومن ثم تأخد الدعوة طريقها الميسر إلى الله تعالى.

أما إذا كان الرسول مَلَكا أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فسوف لا يستطيعون تقليده ومن ثم لا تكون دعوة ولا تكون هداية .. قال:

(وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد لأنه بشر منهم. يتسامى بهم رويدا. ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التى يبلغهم أن الله قد

(١) تفسير سورة الفرقان.

فرضها عليه. وأرَادهَا منهم.

فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التى يحملها إليهم وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم. ينقلونها سطرا سطرا. ويحققونها معنى معنى وهم يرونها بينهم. فتهفو نفوسهم إلى تقليدها. لأنها ممثلة فى إنسان. ولو كان ملكا ما فكروا فى عمله. ولا حاولوا أن يقلدوه. لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم.

فلا جرم أن يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل فى محاكاته. وشوق إلى تحقيق صورته).

*****

جوهر الدعوة

فى حديثنا عن الرسل عليهم الصلاة والسلام بيَّنا أصلا بارزا من أصول الدعوة وهو: الداعى.

ويصل بنا الحديث إلى بيان أصل الأصول الذى يدعو إليه وهو: التوحيد موضوع الدعوة والذى يشكل جوهر الرسالة وحجر الزاوية فى بنائها:

(إن الرسالة الإسلامية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة. هاجرت غالبة من الشرق إلى الغرب. بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه. ودعت إليه. وفازت به. وهو توحيد الله. وتوحيد الكلمة. وتوحيد القوى. وتوحيد الغاية)[1].

وآيات القرآن الكريم شاهدة على وحدة الرسالات الإلهية فى أصولها. وكيف كان التوحيدهو المحور الذى دارت عليه:

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [لأعراف: ٧٣].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿ثم أوحينا إليك أن تتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ [النحل: ٢٣]

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) مجلة الأزهر محرم ١٣٨٧ هـ.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:١٣].

[معنى التوحيد]

تعنى كله «إله» المعبود مطلقا . . بالحق أم بالباطل ومن الأول قوله تعالى:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

ومن الثانى قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]

[أثر التوحيد]

ومتى استقرت عقيدة التوحيد فى قلب الإنسان . . نشطت فى العبادة أعضاؤه فى حركة حرة مباركة تسهم فى إنشاء حضارة زاهرة قائمة على أصولها التى لا تحول ولا تزول. بما تنشئه فى كيان الموحد من الداخل أو الخارج:

أنه مخاطب بمثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام ١٧]

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

وما ظنك بمسلم يبدو فى قمة وعيه الفكرى . . واستعلائه النفسى على كل معوقات طموحه حين ينطلق فى مناكب الأرض معتقدا أنه: لا إله إلا هو يحيى ويميت ـ لا رزاق إلا هو. لا مالك إلا هو . لا نافع ولا ضارإلا هو لا خالق إلا هو. لا مجيب إلا هو.

توحيد الربوبية

تمهيد

كانت نقطة الخلاف بين الرسول وبين الملأ من قومه هى:

توحيد الألوهية . .

وإلا فهم مقرون بربوبيته سبحانه وتعالى . .

ومن هنا كان الإنسان مطالبا بأمرين:

أ ـ الكفر بالطاغوت.

ب ـ والإيمان بالله تعالى.

فمن زعم الإيمان به سبحانه وتعالى . . ثم بقى على حاله مؤمنا بطواغيت الأرض فهو كافر . .

وإذا كانت المسئولية هنا مزدوجة . .

فقد كان من لطف الله تعالى أن يكون الجزاء من جنس العمل . . ومضاعفا أيضا:

فسوف يزحزحه الحق تعالى عن النار . . جزاء ما زحزح نفسه . . من ظلمة الطاغوت ثم يدخله الجنة جزاء ما دخل فيه من نور اليقين.

إن الاعتراف بربوبية الحق سبحانه مركوز فى طبيعة الإنسان . . لا يحتاج إلى بيان فكونه سبحانه: الخالق المبدئ المنعم القادر . . لا يختلف فيه إثنان بل إن التوحيد فطرة الكون كله:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].

وهذا هو الهدهد يعبر عن هذه الفطرة فى قوله تعالى:

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ . أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ : ٢٦].

ووظيفة الرسل عليهم السلام تنمية هذه الفطرة وترقيتها. وبدون رسالاتهم تصبح هذه الفطرة ضوءا خافتا تطفئه النسمة العابرة.

ولأن الأنبياء عليهم السلام من صنع القوة القاهرة ـ والمصنوع مهما عظم لا يقف على حقيقة صانعه ـ لم يستطيعوا تعريفها إلا بالأسماء والصفات ذات الآثار فى عالم الواقع.

يقول الإمام الغزالى معبرا عن وجود الحق تعالى موصوفا بصفات الجمال والجلال فطرة فى ضمير الإنسان:

(ليس بخفى على من معه أدنى مُسكة من عقل . إذا تأمل بأدنى فكره مضمونَ هذه الآيات. وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات. وبدائع فطرة الحيوان والنبات ـ أن هذا الأمر العجيب. والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يديره. وفاعل يحكمه ويُقدِّره.

بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره. ومصرفة بمقتضى تدبيره قال الله تعالى:

﴿أفى الله شك فاطر السموات والأرض﴾

ولهذا بعثَ الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا:

لا إله إلا الله.

وما أمروا أن يقولوا: لنا إله وللعالم إله. فإن ذلك كان مجهولا فى فطرة عقولهم من مبدأ نشرهم. وفى عنفوان شبابهم).

وكان ذلك منهم اكتفاء بحكم الفطرة الشاهدة بوجوده سبحانه وتعالى . .

أما لماذا أقيمت الأدلة أحيانا على وجوده تعالى . . فإن الغزالى يجيب أيضا بقوله : (فإذن : فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة البرهان ولكنا نبرهن ـ على وجوده تعالى ـ على سبيل الاستظهار . والاقتداء بالعلماء) .

[شواهد القرآن]:

وفى القرآن الكريم آيات بينات شاهدات بفطرة التدين . . مؤكدات تأصل الحاجة إلى المعبود سبحانه فى فطرة الخلق . لولا غاشيات الهوى المانعة من الاقرار : يقول سبحانه :

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

ثم إنهم يعتقدون بإله متصف بصفات الكمال : مالك . . رزاق . . . مدبر . . مهيمن

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر : ٣٧] .

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩] . .

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٨٤ : ٨٩] .

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

[يونس: ٣١: ٣٢] .

وإذا كان العناد يمسك الألسنة عن النطق بالحق أحيانا . . فإن الحق سبحانه وتعالى يأمر نبيه ﷺ أن يجيب هو إلزامالهم وذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

* تناقض الجاحدين:

ويلاحظ أن الآيات الكريمة تحاصر القوم. وتضيق عليهم الخناق . . حيث تلزمهم أن يرتفعوا بأعمالهم إلى مستوى فطرهم الشاهدة بوجود الخالق سبحانه . .

إنها تثيرهم: ليذكروا . . وليتقوا . . ليتمكنوا بالتذكار والتقوى من الاستسلام لنداء فطرهم . . خروجا من هذا التناقض الواضح فى حياتهم حين يؤمنون بالفكرة . . ثم يخاصمونها بأعمالهم. وهذا التناقض فى حياتهم لا يلغي الاعتقاد بأن الحق مترسب هناك فى أعماقهم خلف سدود البيئة العفنة. والمواريث الباطلة.

يقول سبحانه:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

جاء فى «المصباح» مادة جحد:

«جحده حقه ـ وبحقه جحودا: أنكره. ولا يكون إلا عن علم من الجاحد به».

قال ابن منظور:

(وما أظن أن أحدا فى الوجود يتخيل أن له غنى عن الله تبارك وتعالى قط. بل أعتقد أن فرعون والنمرود وغيرهما ممن ادعى الألوهية إنما هو يتظاهر بذلك وهو يتحقق فى باطنه فقره واحتياجه إلى خالقه الذى خلقه ودبره فى حال صغر سنه وطفولته وحمله فى بطن أمه. قبل أن يدرك غناه أو فقره.

ولا سيما إذا احتاج إلى طعام أو شراب أو اضطر إلى إخراجهما أو تألم لأيسر شىء يصيبه من موت محبوب له. بل من موت عضو من أعضائه.

بل من عدم نوم. أو غلبة نعاس أو غُصة ريق مما يطرأُ أضعاف أضعاف ذلك على المخلوقين. فتبارك الله رب العالمين)[1].

ولقد غفل القوم عن حقيقة واضحة:

فحينما أقروا بوجود الله تعالى بكل صفات الكمال غفلوا عن النتيجة المترتبة على هذا الإقرار وهى: طاعته تعالى. والالتزام بشرعه الحكيم.

ولقد فضلوا التناقض. وما يترتب عليه من تمزق نفسى وتفسخ اجتماعى على أن يعيشوا فى ظل عقيدة وافية وكانوا فى هذا الانحراف على طريق كبيرهم في الكفر: إبليس . . حين اعترف به تعالى خالقا فى قوله تعالى: ﴿خلقتنى من نار﴾ ثم كفر به تعالى. فلم يطع أمره.

* توحيد الألوهية وطريق المعرفة

وعلى هذا النوع من التوحيد ركَّزت الآيات القرآنية. وينبغى أن نعلم أن هناك نوعين من الإدراك:

إدراك الشىء بذاته . . فى عالم الشهادة

وإدراك له بالدليل. مع العجزعن تصور ذاته «فى عالم الغيب».

وبهذا النوع من الإدراك نستدل على توحيده تعالى وتفرده بالعبادة. عن طريق إدراك آثاره سبحانه فى الكون. والعجز عن تصور شئ لا يكون دليلا على عدم وجوده لأن هناك فرقا بين التعقل والتصور:

---

(١) لسان العرب مادة جحد.

فلا يصح فى حكم العقل أن تنكر ما ثبت بالدليل العقلى القاطع بحجة أننا لا نتصوره لأن ذلك التصوير مستحيل.

*** الآيات الدالة على توحيد الألوهية:**

قوله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد: ١٩].

﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿ **قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

*** منهج القرآن :**

وللقرآن منهجه الراشد فى الاستدلال على توحيد الألوهية.

(يكثر فى القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده فى عبادته. ولذلك يخاطبهم فى توحيد الربوبية باستفهام التقرير فإذا أقروا بربوبيته احتج عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده ووبخهم منكرا عليهم شركهم به غيره. مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده.لأن من اعترف بأنه الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده)(٤).

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى:

﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ**﴾ فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرا عليهم شركهم غيره بقوله ﴿**فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٣١].

---

(٤) راجع اضواء البيان للشنقيطى.

وقوله تعالى: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون فسيقولون لله﴾.

فلما اعترفوا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله ﴿ أفلا تذكَّرون﴾ [المؤمنون: ٨٤]

ثم قال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فلما أقروا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله تعالى ﴿ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

وهكذا يتخذ القرآن فى كثير من الآيات من اعترافهم بربوبيته سبحانه دليلا ملزما على توحيده تعالى فى عبادته[1].

يقول تعالى فى سورة الزخرف:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ٩: ١١].

فقد أشهدهم سبحانه وتعالى على أنفسهم .. فنطقت الفطرة بالحق. حيث أقروا طائعين:

أن الذى خلقهم هو الله. وأنه الإله الموصوف بصفات الكمال فهو: العزيز... العليم.

وتلزمهم الآيات بعد ذلك بنتيجة هذا الاعتراف وهو إفراده تعالى بالعبادة من حيث أنكم تتقلبون فى نعمه الوفيرة.

فهو الذى جعل لكم الأرض مهدا

وهو الذى نزل من السماء ماء.

وطريقة القرآن الكريم هنا .. هى:

الانطلاق من نقطة الاتفاق .. إلى ما يترتب عليه من التوحيد الذى هو نتيجة لازمة تفرض على كل من اعترف به سبحانه وتعالى: ربا .. عزيزا .. عليما ..

(١) راجع آيات: لقمان ٢٥ ـ وآيات سورة النمل ٥٩ وما بعدها وغيرها من الآيات الكريمة.

* شريعة الإسلام: .

وعلى أساس من هذه العقيدة البانية ينبثق نظام . وتقوم شريعه . . فى ظلها تزدهر الحياة . .

والرسول ﷺ يحدد معالم هذه الشريعة فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه . . قال:

(كان النبى ﷺ بارزا[١] يوما للناس. فأتاه جبريل فقال:

ما الإيمان

قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه. وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث.

قال: ما الإسلام.

قال: الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به. وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان:

قال: أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: متى الساعة

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك عن اشراطها «علاماتها» إذا ولدت الأمة ربها[٢].

وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان[٣] فى خمس[٤] لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبى ﷺ :-

إن الله عنده علم الساعة . . الآية.

---

(١) ظاهراً . . يعلمهم.

(٢) الأمة المملوكة. أى يتحكم الولد فى مصير أمه بمعنى انقلاب الأوضاع وقد يكون فساد القيم بانتشار الزنا الذى تضيع به الأنساب وقد يشترى الولد أمه ولا يدرى.

(٣) المراد: تقدم المغمورين في السلم الاجتماعي ليبنوا ناطحات السحاب.

(٤) أى خمس علامات.

ثم أدبر . فقال: ردوه. . فلم يروا شيئا.

قال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.

قال أبو عبد الله :ـ البخارى ـ جعل ذلك كله من الإيمان)[1].

وإذن: فركنا الإسلام الأساسيان:

أ ـ الشهادة.

ب ـ والعمل بمقتضاها.

وعلى هذين الركنين يسمق البناء.

وبناء على ذلك يمكن تصور عقيدة التوحيد جوهر حضارة عالمية دافقة العطاء . . لا ينضب معين الخير فيها أبدا . .

وبها يقود الأنبياء ركب البشرية إلى الإمام. . دائما . . ذلك بأن الأنبياء عليهم السلام يبلغون وحيا أوحى إليهم . . وليسوا كهؤلاء المصلحين الذين يحسون بآلام البشر. . فيصوغون من تجاربهم الشخصية دواء لها. . ثائرين على ما يرونه من صور الظلم الواقع بالشعوب. .

ومع سلامة نوايا هؤلاء المصلحين أحيانا . . فقد ينجح المصلح مرة ثم يفشل أكثر من مرة.

لأنه يتحرك بوحى من بشريته المحكومة بمزاجه الشخصى. ولكن حقيقة التوحيد على النحو الذى رأيت. تشكل نهضة شاملة كاملة يقود ركبها الميمون صفوة الخلق على الإطلاق . . والذين يصبحون فى مرأى العين نماذج حية لهذه العقيدة التى يخرجون بها من فطرة مستكنه فى الضمير. . لتكون فى الواقع عملا. . بعد أن كانت فى النفس أملا.

وإذا بدا واقع الأمة اليوم على عكس ذلك . . فهى الانتكاسة الراجعة إلى التفريط فى مسئوليتنا ازاء التوحيد . . توحيد الله تعالى . . والذى يوشك أن يصير . . أحلاما فى الخيال . . بلا رصيد فى الواقع. .

---

(١) البخارى كتاب الإيمان.

ولقد انتكست الأمة الإسلامية حيث أسقطت من مضمون الإسلام.. العمل .. من صلاة .. وزكاة .. وجهاد .. ونشاط اجتماعى واسع . ولا نهوض لها إلا بالعودة إلى مفهوم الإسلام الصحيح والذى لا نجاة لها إلا به.

*** دليل الوحدانية:**

يستفاد من كلام الغزالى أن وظيفة الرسل الأساسية/ دعوة الخلق إلى توحيد الله تعالى .. من حيث كان وجوده سبحانه وتعالى راسخا فى القلوب والعقول.

وهذا هو المفهوم من استعراض استدلالات القرآن المركزة على التوحيد .. الداعية إليه.

يقول العقاد فى هذا المعنى:

(الإيمان بالاله الأحد ألزم من الإيمان بالعقيدة الإلهية على إطلاقها إذ كان الإيمان بأكثر من إله واحد مفسدا لفهم الكون. مفسدا لفهم الضمير مفسدا لفهم الواجبات الأدبية. والفرائض الدينية. ومفسدا لعلم الإنسان بحقيقة الإنسان).

لقد أثبت العلم الحديث أن نظام الله تعالى فى العالم لا يتخلف. فأثبت انطباق قوله تعالى ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾ على الفطرة.

وثبت بالمشاهدة أن النظام يسير على وتيرة واحدة:

فالضوء وخواصهُ فى الأرض. هو الضوء فى السماء.. والجاذبية العامة قانون واحد سارٍ على الكون كله.

ومن الأدلة القرآنية على توحيده تعالى المستْتبع تناسق هذا النظام قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والحجة قطعية لا خطابية كما ذهب إلى ذلك بعض علماء الكلام.

لأن الكمال المطلق النهائى لا يكون كما لين مطلقين لا نهائيين فالكمال المطلق واحد فقط.

ولأن الأبد لا يكون أبدين. ولأن الوجودين المتفقين فى البداية والنهاية وفى

تقدير كل شيء وتقدير كل عمل . . ولا يختلفان في وصف من الأوصاف . . ولا في لازمة من لوازم هذه الأوصاف هما وجود واحد . . لا وجودان

يقول الله سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فهذه الآلهة المتعددة المفروضة: إن أطاعت الله لم تخرج عن قضائه فحكمها حكم المخلوقات.

وإن كانت لا تطيعه فهي تنازعه وتبتغي إلى ذي العرش سبيلا. فلا يستقيم على ذلك أمر الوجود.

لكن استقامة هذا الوجود وخلوه من التناقض. وما يتصف به العالم ـ بالمشاهدة ـ من نظام محكم دقيق دليل على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

[التوحيد وتناسق الكون]

كل صورة وكل معنى. لابد أن تكون أجزاؤه متآخية متماسكة. يترتب آخرها على أولها:

أ ـ القصيدة الشعرية (وهي القول)

ب ـ الصور الطبيعية (وهي مادة)

جـ ـ قوانين الإصلاح (وهي عقلية)

فإذا حدث خلل واحد من هذه الصور فمعناه:

ان جاهلا حكم . . فحدث هذا الخلل:

ذلك بأن الجاهل يحاول الترتيب فتسقط منه حلقات لا يشعر بها فتحدث فجوة تبدو بها الصورة مفككة.

ولذلك يقال: كلما كان الحكم جائرا كان زواله وشيكا.

لأن الحكم لم يترتب على شيء يتناسب معه. فهو بخُلُوِّه من عنصر الانسجام يعرِّض نفسه لهجوم العقول عليه وهدمه بسهولة ويسر بالإضافة إلى أنه فى ذاته غير متآلف . . أى غير متماسك . . فهو إلى زوال.

وإذن . . فقسوة الظالمين. وعنجهية الملأ فى مواجهة دعوة الرسل دليل على جهلهم أولا . . ثم على انتهاء دولتهم ثانيا. لأن عنصر التناسب مفقود . . .

ومن أجل ذلك كانت عقيدة التوحيد أساسية لأنها:

ترتُّب الأثر على المؤثر سبحانه. وترجع كل شيء إليه وحده تعالى . . فرارا من حكم المخلوق الجاهل . . الضعيف. المغرور الذى لا يعلم إلا لحظته ـ الحالية . . ومن ثم يتخبط . . ويضل[1].

---

(١) راجع هذه الفكرة فى الدعوة والدعاة للشيخ الزنكلونى.

[صور من هذا الضلال]

ذهب قصور الفهم ببعض الباحثين إلى القول: بأن الله تعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

وفى رأى آخر: أنه خلق السنن الكونية لتدبر الكون نيابة عنه سبحانه وتعالى أى أنهم يتصورون الحق سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا كما يقول التعبير الدارج: يملك ولا يحكم.

ويتساءل العاقل:

ما مدى قدرة هذه العقيدة على التأثير فى حياة الإنسان؟

إن هذا التصور السقيم يعنى أنه ـ سبحانه ـ يعلم أن فى هذا المكان طلابا .. لكنه ـ سبحانه ـ لا يعرف أسماءهم .. أولا يعنيه ذلك!! كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

ولك أن تتصور تلميذا شاردا يهرب من المدرسة .. ثم يختفى عن أعين الرقباء.. إنه سوف يعبث .. ويفسد فى الأرض ما دامت لا تطوله يد القانون!.. وما دام هكذا وراء العيون الراصدة والإرادة القابضة.

وسوف تفشل عملية التربية إن خططنا فقط للتلميذ .. ثم تركناه يدير دفة حياته كما يريد..

وكذلك:

فإن عقيدةً تُصَور المعبود هكذا.. لا يؤثر فى العابدين. وهو غير قادر على إنشاء ضمير حى .. ودافع إلى عمل الخير.. عقيدة كهذه لا تصلح بها حياة.

ولكن العقيدة فى الإسلام شىء آخر:

يقول الله سبحانه: **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**

وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالله تعالى: واحد لا شريك له . .حى قيوم . . نافذ المشيئة فى الكون - بعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ومن شأن هذا التصور أن يحرك فى الإنسان واعث العمل والتقدم فى صحبة هذا الشعور بعظمته سبحانه وهيمنته . .

إن عقيدة التوحيد لتعصم المسلم من الغرق فى لجة التمزق كما هو حال أصحاب هذه العقائد الباطلة:

ففى حالة تصور الإنسان لأكثر من إله . . ماذا يحدث؟

يحدث نوع من الشتات يذهب بالإنسان بددا حين يواجه هذه الأسئلة - أو هذه السياط الكاوية:

لمن يكون ولاؤه.

لهذا الاله . . أم ذاك؟

ومن الذى يعبده اليوم . . ومن سيعبد غدا؟

وهل الناس من حوله يسيرون معه على هذا الخط؟

وسوف يواجه النتيجة الحتمية.

إنه مع الآخرين الحائرين: أسلاك متشابكة متداخلة . . يعز معها أن تستقبل التيار . . وإذن فلن تضىء فى ليل أو نهار.

*** الآثار العميقة لكلمة التوحيد:**

يقول المودودى فى تبيان هذه الآثار[1].

(إنكم حين تنطقون بعبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتعلنون إسلامكم فإنكم تعلنون وتقرون فى هذا الوقت بأن القانون الذى يجب أن تتبعوه

---

(١) خطب الجمعة ١٩: ٢١.

هو قانون الله فقط.

وحاكمكم هو الله فقط. وخضوعكم هو لله فقط. والحق عندكم هو ما جاء من كتاب الله وما جاءت به الرسل.

ومعنى هذا: هو إنكم بإسلامكم قد أسلمتم حريتكم لله فأصبحتم من حق الله.

والآن لم يعد لكم رأى فى أن تقولوا هذا رأينا. أو هذا هو القانون الدنيوى. أو أن هذه هى عادات وتقاليد الأسرة . . أو أن فلانا قد قال كذا. فلا يمكنك الآن أن تفعل أى شىء يخالف كلام الله وسنة رسوله.

فعملك الآن هو أن تضع كل شىء أمام القرآن والسنة. فتقبل ما يوافقهما. وترفض ما يخالفهما. مهما كان قول قاله أى إنسان أو طريقة يتبعها أى مخلوق.

فإذا قلت إنك مسلم ثم فضلت رأيك أو قانون زمانك أو قول أو عمل أى إنسان على ـ القرآن والسنة فهذا أمر يحتمل تضاربا واضحا. فكما لا يستطع أى أعمى أن يقول عن نفسه أنه «يرى» وكما لا يستطيع من فقد حاسة الشم أن يقول عنه نفسه أنه يملك أنفا يشم بها. . فهكذا لا يمكن لأى شخص أن يقول عن نفسه أنه مسلم وهو يرفض أن يطبق القرآن والسنة. فى جميع أمور حياته. ويفضل عقله أو قانون زمانه أو قول وعمل إنسان ما على ما جاء به الله ورسوله. .

. . . إن كلمة التوحيد (لست طويلة جدا. . فهى تتكون من بضعة ألفاظ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وحين ينطق إنسان بهذه الألفاظ بلسانه ـ يصبح شيئا: فقد كان كافرا قبلا . . ثم أصبح مسلما.

كان قبل ذلك نجسا . . فأصبح الآن طاهرا.

كان قبل ذلك مستحقا لغضب الله ـ فأصبح الآن محبوبا عنده ينال رضاه.

كان قبل ذلك ذاهبا إلى جهنم. ففتحت أمامه الآن أبواب الجنة.

ولا يظل الأمر مقتصرا على هذا:

فبسبب هذه الكلمة يصبح هناك فرق كبير بين إنسان وآخر:

فمن ينطق بهذه الكلمة ينتمى إلى أمة ومن يرفضها ينتمى إلى أمة أخرى.

فإذا نطق الأب بالكامة ورفضها الابن فكأن الأب لم أيعد أبا لابنه والابن لم يعد ابنا لأبيه. ولن يرث الابن من املاك الأب..

وإذا نطق شخص أجنبى بالكلمة الطيبة ثم تزوج بابنة من بيت فإن أولاده - سيرثون من هذا البيت. ولكن ابنه من صلبه يصبح أجنبيا عنه فقط لأنه لم ينطق بالكلمة الطيبة).

ولكن هذا الفرق الهائل بين المسلم والكافر .. لا يتم بمجرد النطق بالشهادة فلابد أن يثمر التوحيد فى قلب الإنسان وجوارحه ... ولابد للأمة أن - تقيم حياتها على التوحيد .. وأن تدير حياتها طبق نظامه وشريعته.. وحرام أن يكون التوحيد جوهرة فى أيدينا .. ثم نهملها .. ولا نغالى بها ولا نجدد بها واقعا أليما نملك داوءه .. ثم لا نطب له .. وبخاصة فى زمان - لا يعترف إلا بالأقوياء..

وبالله التوفيق ومنه العون

حياتنا فى غياب العقيدة

يقول بعض الباحثين:

والأساس فى العقيدة الإسلامية هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

فاذا اهتزت عقيدة التوحيد أقل اهتزاز، اختلت العقيدة الإسلامية فى ضمير الإنسان اختلالا شديدا .. اختلالا يؤثر فى علاقة هذا الإنسان بكل شىء .. علاقته بأهله فإنه لا يبالى أن يخون .. وعلاقته بالناس فلا يبالى أن يسرق وينهب ويعتدى .. علاقته بمن هم أقل منه فهو يعاملهم بالشر والقسوة.. علاقته بمن هم أعلى منه فهو منهم دائما فى موقف الخائف. الخانع، المنافق الكذوب. وهكذا تتفرع كل الرذائل وكل الشرور من اهتزاز عقيدة التوحيد بالله.

فلتكن نقطة البداية هى العودة إلى عقيدة التوحيد بأدق معناها وأصفى روحها. وفى مقال للدكتور محمد سعاد جلال يقول:

قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

أثبتنا لكم ضرورة فساد الأرض بوجود الهين فيهما مع افتراض اتفاقهما معا .. والآن نسوق لكم البرهان على ضرورة فسادهما مع فرض اختلافهما فلتكن على ذكر من قولنا أن مقتضى الإلهية أن يكون الإله قادرا على ما لا يتناهى من الممكنات المقدورات لا يعجزه شىء.

ثم نقول بعد هذا التمهيد أن (ا) و (ب) عندما يزاولان جميع المقدورات الممكنة فى السموات والأرض إما أن يقع مرادهما معا، أو يمتنع وقوع مرادهما معا، أو يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر، وافتراض حالة من هذه الحالات يؤدى إلى المحال وإليكم البيان:

١ـ لو أراد (أ) تحريك الأرض وأراد (ب) تسكين الأرض فوقع مراد كل منهما

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

بحكم أن جميع المقدورات مشمولة بقدرة كل منهما ـ للزم من ذلك أن تكون الأرض متحركة ساكنة فى آن واحد ـ وهو محال: لأنه جمع بين المتناقضين والجمع بين المتناقضين محال.

ب ـ ولو أراد (أ) أن يحرك الأرض فامتنع وقوع مراده لتوجه إرادة (ب) لعدم تحركها ـ ثم أراد (ب) تسكين الأرض فامتنع وقوع مراده ـ لتوجه إرادة (أ) بعدم تسكينها فامتنع بهذا التصور وقوع مرادهما معا، لأفضى ذلك إلى المحال وهو أن تكون الأرض: لا ساكنة ولا متحركة وهو محال: لأن ـ النقيضين كما لا يجتمعان لا يرتفعان والجسم لا يخلو من أن يكون ساكنا أو متحركا.

ثم لكان امتناع مرادهما معا مفض إلى وجود مرادهما معا، ووجود مرادهما معا كما سبق برهانه ـ محال.

جـ ـ ولو افترضنا وقوع مراد (أ) دون وقوع مراد (ب) أو العكس لترتب على ذلك أحد مستحيلين.

أحدهما: أنا فرضنا ـ أن كلا من (أ) و (ب) موصوف بالقدرة على ما لا يتناهى من المقدورات ـ وإذن فكل منهم مساو للآخر فى القدرة وإذا كانا متساويين فى القدرة فَتصوُّر أن يقع مراد أحدهما دون وقوع مراد الآخر ممتنع لأنه ليس وقوع مراد أحدهما أولى من وقوع مراد الآخر ولو تصورنا حصوله لأدى ذلك إلى ترجيح أحد المتساويين على الآخر بغير مرجح: وهو محال عقلا وثانيهما: لو وقع مراد أحدهما وامتنع مراد الآخر. لكن الذى وقع مراده قادرا. والذى بطل مراده عاجزا.

ـ والعجز على الله محال: فيكون (الإله) هو من وقع مراده دون ما لم يقع مراده:

وبهذا التقرير يتضح تمام دلالة الآية على التوحيد وعلى انفراد الله بالألهية فى الخلق والأمر من جهة العقل.

مستويات الناس
أمام دعوة الحق

روى مسلم عن النبى ﷺ :

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم. كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية. قبلت الماء. فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وأصابت طائفةً أخرى: أمسكت الماء. فنفع الله بها الناس. فشربوا. وسقوا. وزرعوا.

وأصاب أخرى: إنما هى قيعان. لا تمسك ماء. ولا تنبت كلأ.

فذلك مثل من فقه فى دين الله.. فعلم ... وعلم.

ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى جئت به».

قال النووى فى شرح الحديث:

(معنى هذا التمثيل: أن الأرض ثلاثة أنواع. فكذلك الناس:

الأول من الأرض:

ينتفع بالمطر. فيحيا بعد الموت.

والأول من الناس: يبلغه الهدى والعلم. فيحفظه. فيحيا به قلبه. ويعمل به. ويعلم غيره. فينتفع به وينفع غيره.

والثانى من الأرض: ما لا يقبل الانتفاع فى نفسه. ولكن فيه فائدة إمساك الماء لغيرها. فينفع الناس والدواب.

والنوع الثانى من الناس: لهم قلوب حافظة . دون أذهان ثاقبة. ولا رسوخ لهم ولا استنباط ولا اجتهاد. فهم يحفظون العلم لأهل الانتفاع.

والثالث من الأرض: السباخ: لا ينبت ولا ينتفع به.

وكذلك من الناس من ينعكس العلم فى نفوسهم إلى تأويلٍ باطل للحق.

فلا ينتفع به ولا يحفظ لغيره.

قال الخطابى فى الحديث:

هذا مثل ضرب لمن قبل الهدى وعلم. ثم عمل. ثم علَّم غيره. فينفعه الله. وينفع. به ولمن لا يقبل العلم. ولم ينتفع ب ،

* إلى من تتجه الدعوة أوّلا:

إذا كانت الدعوة عامة تخاطب المدعوين جميعا. فإن من مصلحتها أن تخاطب أولا أصحاب النفوذ السياسى والاجتماعى والاقتصادى.. والذين يشكلون فى طريق الدعوات حجر عثر

ولهذا المنهج أسبابه:

١ ـ يمثل زعماء المجتمع قوة اقتصادية لهـ .ثرها الفعال .. ولو بقى الاغنياء بعيدا فإن الدعوة تحرم من ثروة تمكِّن لها ى الا ض. بقدر ما تجعل منها سلاحا ماضيا فى أيدى المعاندين تعرقل مسارها.

٢ ـ إذا غضب رئيس القبيلة غضب معه ألف سـ ،.

وبنفس القوة: فلو أنه أسلم لدخل بسببه فى الإسلام حلق كثير.

٣ ـ للزعماء عادة خبرات. وبَصَرٌ فى تصريف شئون المجتمع. يمكن أن تكون فى خدمة الدعوة التى تواجه أعداء يتفننون فى الكيد. والتأليب عليها.

٤ ـ كان الجدال الدائر بينهم وبين الرسول .. والذى سجله القرآن الكريم فرصة أظهرت لأتباعهم المفتونين بهم تهافت منطق هؤلاء الزعماء..

٥ ـ كان هؤاء القادة أصحاب المصلحة الحقيقية فى الإبقاء على الأوضاع القديمة ليبقى نفوذهم.. وليظل السادة سادة .. والعبيد عبيدا.

ومن ثم فقد كانوا أشد الناس عداوة للدعوة.. وكان التصدى لهم أولا إجراء حكيم يحبط ما يحملون فى قلوبهم من نوايا الإثم والعدوان.

* شواهد من القرآن الكريم

مع أن رسالة موسى عليه السلام كانت عامة لبنى اسرائيل .. لكن الحق سبحانه وتعالى يخص بالذكر رءوس الفتنة. وذلك قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤].

وإذا كثر الرافضون لدعوة الحق .. فقد كان الملأ منهم فى طليعة هؤلاء الرافضين:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩ : ٦٠].

وعلى درب الملأ سار الأخلاف.. فكان لابد من مواكبة هذا العناد بمزيد من الحوار. وخاصة فى مراحل الدعوة الأولى.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

﴿ قَالَ الْمَلَأُ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ [الأعراف: ٧٥].

* شواهد من السنة المطهرة:

١ ـ جاء فى تفسير ابن كثير بيانا لموقفه ﷺ من عبد الله بن أم مكتوم (كان يخاطب يوما بعض عظماء قريش. وقد طمع فى إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديما. فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن أى شيء ويلح عليه.

وود النبى ﷺ لو كف ساعته تلك. ليتمكن من مخاطبة ذلك ـ الرجل ورغبة فى هدايته.

على حد قول الشاعر (ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم

أمرتهمو أمرا يديخ الأعاديا

وعبس فى وجه ابن أم مكتوم. وأعرض عنه وأقبل على الآخر. فأنزل الله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾

... ومن هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحدا. بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغنى والسادة والعبيد والصغار والكبار)[1].

فالرسول ﷺ ـ محكوما بمصلحة الدعوة يلح على كبراء القوم...

وذلك فى مراحل الدعوة الأولى.. تماما كما كان يتألف بالمال قوما منهم..

فلما وصل الأمر إلى حد العبوس فى وجه من تحملوا مسئولية الدعوة أولا.. ثم الإقبال على من لا يرجى منهم الخير.. لما حدث ذلك.. كان لابد من العودة بالأمور إلى الوضع الأمثل وهو ما نصت عليه الآية. وبينه المفسرون.

٢ ـ عندما ذهب ﷺ إلى الطائف. عَمَدَ إلى نفر من ثقيف. وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم. فجلس إليهم رسول الله فدعاهم إلى الله. وكان هذا شأنه فى مستهل دعوته:

(لا يسمع بقادم إلى مكة من العرب له اسم وشرف. إلا تصدى له. فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده)[2].

٣ ـ عندما نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال علىّ رضى الله عنه:

(دعانى رسول الله ﷺ فقال يا على:

إن الله تعالى قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين. فعرفت أنى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره. فَصَمَتّ عن ذلك.

---

(١) نفسير سورة عبس.

(٢) ابن هشام ج٢/٣٢٣١.

ثم جاءنى جبريل فقال يا محمد:

إن لم تفعل ما أُمرت به عذبك ربك.

فاصنع لنا يا على شاة. على صاع من طعام. وأعد لنا عُسَّ لبن - القدح الكبير - ثم اجمع لى بنى عبد المطلب. ففعلت. فاجتمعوا إليه.

فيهم: أعمامه: أبو طالب وحمزة والعباس. وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت إليهم تلك الجفنة)[1].

إن أهله هم أقرب الناس إليه .. فهم أولى بالصلة..

ولما كانوا أعلم بأحواله.. فإن إيمانهم شهادة بصدقه.

إلى جانب كونهم قوة له وشوكة.

إن الإسلام لا يتعصب لطبقة ضد طبقة.

ولا يدعو - كالشيوعية - إلى الانتقال من رأسمالية قديمة - ممثلة فى الأغنياء إلى رأسمالية جديدة - ممثلة فى طائفة العمال.

ثم هو لا يجلس فوق البركان والحرب دائرة بين الفريقين ليعيش على آلام - البشر. (إنه لا يُجلس الأرذلين على رجله ليضرب بهم الأغنياء ولكنه يحاول إصلاح الاثنين على سواء .. أنه كما قيل يهدم الفساد. ثم يبنى بعد الأمجاد ثم هو يركز أولا على أصحاب النفوذ كما قلنا. ولهذا التركيز ما يسوغه.

إن هؤلاء الكبراء يملكون من وسائل الضغط والإكراه ما يتهدد الإيمان فى صدور المؤمنين: إنهم يملكون من القوة ما يخيف. ومن المال ما يسيل له اللعاب ومن وسائل التشكيك ما يغرى بالتردد ويُفضى إلى البلبلة.. وإذن فلابد من التعامل مع مصادر الخطر.. شريطة أن يبقى المؤمن عزيزا فى وطنه وبين قومه .. فإذا تعرضت كرامة المسلم للخطر.. فإن الحفاظ على هذه الكرامة فوق كل اعتبار.

---

(١) ابن كثير: تفسير سورة الشعراء.

* من الذى يتصدى للدعوة ولماذا؟

تبين لنا كيف تتولى قوى العدوان كبر التصدى للدعوة والتنادى بالقضاء عليها. ومن المفيد أن نحاول استكشاف دوافع هذا العدوان .. فإن معرفة الداء أعون على تحديد الدواء:

ومن هذه الدوافع:

١ ـ الكبر:

يقول الحق سبحانه ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ** ﴾ [ص: ٢].

ويفسر ابن كثير الآية بقوله: ٠«فى عزة» أى: اسكبار عنه. وحمية.

«وشقاق» أى: ومخالفة له. ومعاندة ومفارقة).

وإذا حمل الكبر على تجاهل حقوق الناس .. فإن من صوره: رد الحق عنادا. ومعنى ذلك أن المتكبر يفقد صلاحية الاعتبار بهذا الاستكبار.

يقول الإمام الغزالى:

[ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر قط. إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر)[٢].

وكلما تكرر الإعراض. فإنه واصل بالمتكبر إلى خراب باطنه. وحرمانه من ملكة التمييز .. يقول سبحانه:

﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٢ ـ تحكيم الهوى

هؤلاء القوم إذن ليسوا أهل بحث ونظر. بعد أن حرموا وسيلة البحث والنظر. وإنما هم أهل هوى:

أ ـ فلا يرجى عُدُولُهم عن باطلهم إلى الحق الذى تدعوهم إليه.

---

(١) عن أصول الدعوة ٣٤٦.

ب ـ لا يُستغرب منهم السفه.

جـ ـ فلا تأس عليهم فلست وكيلا عليهم.

د ـ ذلك بأنهم لا ينتفعون بالخطاب المسموع . ولا بالبرهان المرفوع.

فلماذا الأسى على قوم هم فى الواقع أضل من الأنعام:

لأن الأنعام لا تتصف بعلم ولا بجهل.

لكن هؤلاء وإن لم يتصفوا بالعلم. إلا أنهم اتصفوا بالجهل.

وجهلهم يضر بغيرهم . بينما جهل الأنعام لا يضر أحدا.

بل إن جهلهم مركب: لاستمرارهم فى العناد وتحكم الهوى مع وضوح البرهان.

إن الأنعام: تعرف مَنْ يحسن إليها .. ثم تقبل عليه.

وهؤلاء يعرضون عن المنعم سبحانه .. ثم يقبلون على الشيطان. وهو عدوهم .. بل عدوهم المبين.

[مضار الهوى]

منها:

أنه يصد عن الحق. بحيث تأتى بالدليل والحجة فيجحدها الهاوى.

وكان أعظم تخوف أمير المؤمنين على رضى الله عنه من ذلك فقال مشددا:

«إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى.

فأما طول الأمل فيُنسى الأخرة وأما اتباع الهوى. فيصد عن الحق

ومنها إفساد العقل.

فتكون اجتهاداته معيبة غير موزونة: يقول الشاعر:

فخذ بمنهج من يعصى هواه وقد أطاع أهل الحجا فى كل مؤتمر

إن الهوى يفسد العقل السليم ومن يعصى الهوى عاش فى أمن من الضرر

ومنها - وليس بآخرها - البطالة. وترك الجماعة. والقعود عن العمل والمشاركة فى أبواب الخير التى يطرقها الدعاة حتى ينسى معنى النشاط ومغزى الدعوة فإنها:

ثلاث مهلكات لا محاله هوى نفس يقود إلى البطالة

وشح لا يزال يطاع دأبا وعجب ظاهر فى كل حاله[1]

وأضر من هذا كله:

أن يكون المرء متماديا لا يعالج هواه. غير مسرع إلى مخالفته حتى أن مثل أبى العتاهية (يضجر ويتأفف من برودة صاحبه فى ذلك فيخاطبه:

خالف هواك إذا دعاك لريبة فلرب خير فى مخالفة الهوى

حتى متى لا ترعوى يا صاحبى حتى متى حتى متى . وإلى متى؟

ويتعجب ثانية لفتوره وعدم المسارعة إلى الإصلاح فيقول:

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى سبحانه .. إن الهوى لغلوب

سبحان ربك ما تزال وفيك عن إصلاح نفسك فترة ونكوب

[اتباع الهوى.. دليل العجز]

إن اتباع الهوى .. وإيثاره على مطالب العقل دليل عجز الإنسان وإن حاول التمويه والخداع...

يقول ﷺ:

(الكيس - أى العاقل - من دان نفسه. وعمل لما بعد الموت.

والعاجز: من أتبع نفسه هواها. وتمنى على الله الأمانى)[2]

---

(١) نفح الطيب ٥٩٨.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة.

إن النفس المحكومة بالهوى دابة جموح .. تقود صاحبها إلى المعاطب بقدر ما يكون الانفلات من إسار الهوى حرية تجعل صاحبها سيد مصيره.

يقول سفيان بن عيينة:

إذا ما وجدت المرء يعتاده الهوى	فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه	وقد وجدت فيه مقالا عواذلُه
ولا ينزع النفس اللجوج عن الهوى	من الناس إلا وافر العقل كاملهْ

٣ ـ الحسد:

يقول سبحانه: **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾**.

وقد كانت أمنيتهم الكبرى أن يعود المؤمنون إلى الكفر بعد أن نجاهم الله منه وليكونوا فى الضلال سواء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

٤ ـ الخوف على دنياهم:

كان الإسلام ثورة على الترف المفسد للأمم .. إلى جانب ما وضعه من مبادئ تزن أقدار الرجال على نحو غير مألوف..

فلم تعد الدور والقصور .. ولا المال أو البنون .. حجر الزاوية فى تقدير الرجال...

وصارت التقوى بكل قيمها مقياس المفاضلة بين الناس...

فَذُعِر الملأ ـ وهم أصحاب المصلحة فى الإبقاء على تراثهم على ما فيه من عفن وفساد فهبُّوا فى وجه الدعوة إبقاءً على حياتهم ومراكزهم أن تزول فى هذه المعركة الطحون.

٥ ـ التمسك بالقديم:

إذا تصورنا ـ أحيانا ـ جفاء البدو. وشدة تمسكهم بالقديم. سَهُل علينا تفسير عداوة مجموعهم لرسالات الإصلاح بالإضافة إلى أن عقائدهم غير واضحة ولا محددة فى أذهانهم وكأنما كانت جزءا من ذواتهم. فكأنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم فى واقع الأمر.

٦ ـ الغرور:

أ ـ الاغترار بالعدة والعدد:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر ٤٤ : ٤٥]

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]

ب ـ الاعتداد بالذكاء والعبقرية . وهذا ما حكاه القرآن الكريم عن قارون:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص ٨]

جـ ـ الاغترار بإصابة الهدف وسداد الرأى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف ١١]

د ـ الاغترار بالأموال والأولاد:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]

ـ الخوف من الحساب:

إذا اطلق الطغاة أيديهم فى رقاب الناس قتلا . . وفى أرزاقهم نهبا . . فإن الإحساس بالذنب لَيُؤَرِّقهم إلى حد يحسبون فيه كل صيحة عليهم . . ومن ثم يتصدون لكل دعوة إصلاحية من حيث كانت النذير المدمدم . . والذى سيضعهم فى قفص الاتهام ليقول فيهم كلمته . .

يقول الفخر الرازى وهو يذكر أسباب مناوءة الطغاة للدعوة:

[**الأول**: أنهم يتثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات

واللذات.

الثانى: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة. وذلك شاق شديد على الطباع.

الثالث: أن الرسول متبوع مخدوم. والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته. وذلك أيضا فى غاية المشقة.

الرابع: أن الرسول قد يكون فقيرا ولا يكون له أعوان وأنصار. ولا مال ولا جاه.. فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة.

الخامس: خِذْلان الله لهم. وإلقاء دواعى الكفر والجهل فى قلوبهم.

هذا هو السبب الأصلى.

فلهذه الأسباب. وما يشبهها يقع الضلاّل والجهال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام فى هذه الأعمال القبيحة والأفعال المنكرة)[1].

ويقول ابن القيم:

(ولو نجا أحد لنجا منها رسول الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه.. وهى عقبةُ تسليط جنده عليه بأنواع الأذى: باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته فى الخير:

فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله وظَاهَر عليه بجنده وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له فى التخلص منها.

فإنه كلما جد فى الاستقامة. والدعوة إلى الله. والقيام له بأمره جد العدو فى إغراء السفهاء به..

فهو فى هذه العقبة قد لَبِس لأْمَةَ الحرب. وأخذ فى محاربة العدو لله وبالله)[2]

وصدق الشاعر القائل:

إذا محـــاسنى الـــلاتى أدل بهـا   كانت عيوبى فقل لى كيف أعتذر

(١) تفسير الرازى ج ١٣/١٩.

(٢) مدارج السالكين: ٢٢٥: ٢٢٦.

الاستعلاء بالنسب

ونقرأ فى ذلك كلمة للدكتور محمد سعاد جلال:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْ﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٥] صدق الله العظيم.

نجد أن الحديث مع المترفين الذين أُخذوا بالعذاب فهم يجأرون وقد تتابع الحديث عنهم ملونا ومنوعا إلى هذا الموضوع فارتد إليهم صريحا ببعض خصائصهم الطبقية وهى التفاخر بالأنساب والاستعلاء به على الناس والاستعانة به فى الحصول على امتيازات أدبية ومادية غير ممنوحة لغير أهل طبقتهم من أمتهم. وقد كان الاستعلاء بالنسب من أسباب استعصائهم على قبول دعوة الأنبياء إذ كان هؤلاء الأنبياء فى نظرهم أقل منهم نسبا فجاءت هذه الآيات تهدد من مفعول النسب والطبقية يوم القيامة حيث لا ينهض للعبد شافعا عند الله إلا عمله الصالح الذى تزود به فى الدنيا. ومن خصائص الطبقيين وأهل الأنساب أن يتعارفوا بينهم بأنسابهم ويتساءلوا فيما بينهم عن أنسابهم لتنفرد بينهم الحقوق والامتيازات المرتبة لهم على النسب الممتاز فأهدر القرآن مفعول النسب وأهدر التساؤل به وعنه باعتباره بعض الدعاوى الملازمة له. وهنا لابد أن نقف وقفة ـ ولو عابرة ـ لنحلل فيها موضوع النسب والطبقية لكثرة الكلام عنهما فى هذه الأيام.

والفكر الذى نُلمح إليه هنا هو الحكم بالفصل بين شرف النسب واقتضاء الطبقية إذا قُصِر كل منهما على مفهومه الموضوعى وكذلك الإسلام يعترف بشرف النسب ولا يرتب عليه خلق طبقية اجتماعية.

ومن المؤكد عندى أنه يوجد فى الناس أنساب شريفة وأنساب خسيسة كما يوجد بينهم قطعا وراثات نفسية كالذكاء والجمال، والمواهب العلمية والأخلاقية، ووراثات أخرى خسيسة كالقبح والغباء وسقوط الخلق كالجبن، والشره، والاستذلال، بل لا نفهم من شرف النسب إلا شرف الوراثة.

وإذا حالت هذه الحواجز النفسية والاجتماعية بين الملأ .. وبين الإسلام فقد برئ البسطاء من هذه العلل البشرية .. وسرعان ما استجابوا للدعوة طائعين.

*** التشكيك فى نوايا المخلصين:**

لم يكتف المستكبرون برفض الدعوة الجديدة .. بل إنهم أثاروها حملة مغرضة يراد بها التشكيك فى نوايا المؤمنين المخلصين.

وفى الوقت الذى تنطق الشواهد بصدق هؤلاء البسطاء فإيمانهم وهو الاستجابة طبيعية للفطرة الخيِّرة التى والدوا بها .. فهم بها يسيرون فى الاتجاه الصحيح.

والعذاب الذى لا قوه دليل على أنهم لم يكسبوا مالا لا جاها.. بل العكس هو الصحيح لقد ذاقوا من العذاب ألوانا كان من الممكن تلافيها بالبقاء مع أسيادهم كافرين.

ومع ذلك فقد شكك الكبراء فى نواياهم مدفوعين بالحسد والكبر وكل ما تنطوى عليه نفوسهم من مكر:

استنكروا أن يؤمنوا بالله ورسوله بينما يؤمن به الأرذلون.

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ١١١، ١١٤]

وتكررت المحاولة معه ﷺ ... الأمر الذى يفرض عليه مكايدة هؤلاء الحاقدين:

﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

[الأنعام ٥٢].

وهكذا يسجل الحق تعالى صدق نوايا هؤلاء البسطاء من المؤمنين .. داعيا رسوله إلى اصطفائهم واتخاذهم سندا للدعوة .. ورفض ما يقترحه المبطلون الذين يريدونها طبقية تستحوذ على الدعوة عن طريق أبعاد عَمَدِها القوية... ليستنى لهم من بعد احتواءها ثم توجيهها طبق ما يريدون.

وذلك قوله تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨: ٢٩].

*** الحملة مستمرة**

وما زال أحفاد لهؤلاء المبطلين يرددون نفس التهمة إرادة التشويش على إيمان المخلصين...

وما زال أيضا لهؤلاء المخلصين أحفاد يتصدون لهذه التهم بردها فى نحور أصحابها:

يقول الدكتور عماد الدين خليل:

[إن إلقاء ظلال من الشك على هذه الدوافع محاولة يراد بها تصوير البعث الإسلامى كحركة طبقية يواجه فيها الفقراء الأغنياء على غرار ما تُصوِّره - الفلسفة الشيوعية..

هذه الفلسفة الرامية إلى فرض العامل الاقتصادى وحده ليفسر هذه المواجهة مع إقصاء الدوافع الإيمانية والمبادئ القويمة من صدور لم تعلن إسلامها إلا بسائق من هذه المثل ذاتها...

ولم يكن العامل الاقتصادى واردا أبدا .. ولكن الفكر الملحد يضاهىء اليوم

ما قاله سلفهُ من قبل فى محاولة لتجريد الحياة من المعانى الكريمة والتى لا تساوى الدنيا فى غيابها شيئا).

ثم يقول:

(لا ريب أن اعتماد المقاييس - كما فعل كثير من المستشرفين أمثال كريمر وجرمة وغيرهما - لفحص الدوافع التى قادت المسلمين للانتماء الجديد أو إلى أى عقيدة أو دين. أمر يرفضه واقع التجربة فى أبعدها الشاملة الرهيبة فلم يكن البحث عن الحق . والتشبث فى الانتماء إليه . أمر معدة تبحث عن طعامها. وجسديرنو إلى الإشباع. بقدر ما هى مسألة نفسية متكاملة يلعب فيها الظمأ الروحى. واليقين الفكرى. والقناعة الذاتية دورها الأول والأخير.

بحيث أن سائر الأمور الأخرى الحسية والجسدية تجىء ثانوية بالنسبة لهذه العوامل الأساسية.

هذا على المستوى النفسى، أم على المستوى التاريخى:

فإن هذا المقياس المادى الذى أخذ يشيع فى العقود الأخيرة. فإسقاط معاصر على الوقائع التاريخية الماضية سرعان ما يتهافت بمجرد إلقاء نظرة متأنية على قوائم المسلمين الأول. الذين كان أكثرهم - كما يقول صالح العلى من التجار ورجال الطبقة الوسطى . وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدافع عنهم بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين فى الإسلام لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأى . إذ أن هؤلاء نالوا كثيرا من الاضطهاد وبسبب عقائدهم وَمُنُّوا بكثير من الآمال إذا تركوه . فرفضوا وأصروا على التمسك بالدين الجديد. . . فعثمان بن مظعون كان من قبل ظهور الإسلام من الباحثين عن الدين وسعيد بن زيد بن عمرو وهو ابن الرجل الذى كان حنفيا يبحث عن دين إبراهيم وخالد بن سعد بن العاص اعتنق الإسلام لأنه رأى نفسه فى المنام على - حافة هاوية من النار يدفعه إليها أبوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها. ويمكن تفسير ذلك باشتغال عقله الباطن فى

الأمور الدينية واعتناق الإسلام لاعتقاده بأنه الدين الحق.

أما عمر بن الخطاب:

الذى أسلم بعد هذه الفترة فقد أسلم لتأثره من سماع آيات القرآن ومن رؤية أخته تتأذى - ترى؟ كم من المسلمين قادتهم إلى الإسلام تلك الهزة الوجدانية التى أحدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة المعجزة وهى تتلى عليهم فتغسل ضمائرهم وتزيل رَيْنَ قلوبهم وتُعيدُ تألق الذكاء إلى عقولهم ونور اليقين إلى بصائرهم وأفئدتهم؟ وهل بعد هذه الهزة الشاملة التى تنقل الإنسان من حال إلى حال تفكير (منفعى) محدود فى أمعاء تمتلئ طعاما وجيوب تفيض فضة وذهبا؟ ما الذى دفع عثمان بن عفان وهو فى قمة قريش غنى ومكانة وإيمانا ومحبة وجاها. إلى أن يتمرد على جاهليته ويقف فى لحظات الدعوة الأولى. الصعبة الغامضة الخيرة بمواجهة قومه وعشيرته رافضا الغنى والمكانة والجاه والمحبة مختارا بدلا منها الفقر والاحتقار والزراية والخوف والكراهية؟ حتى ليستهين بسياط عمه وهى تنزل على ظهره من أجل أن يعود ثانية إلى حظيرة الآباء والأجداد؟ وما الذى دفع أبا بكر - وعشرات - غيره إلى أن ينفقوا من أموالهم الخاصة التى سهروا وكدحوا على جمعها وتنميتها ينفقونها حتى آخر درهم، حتى أن الرسول ليسأل رفيقه الصديق وما الذى أبقيت لعيالك يا أبا بكر فيكون جوابه: أبقيت لهم الله رسوله. وما الذى دفع سعد بن أبى وقاص، الغنى المدَلل، أن يرفض توسلات أمه، وقد أوثقته رباطا من أجل أن يرتد عن دينه، حتى ليسلمها إليهم من عناء ذلك إلى المرض فما يكون جوابه إلا أن يقول للأم التى هى أعز الأحبة على قلوب الأبناء: والله يا أم لو رأيتك تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ما ردنى ذلك عن دينى !! وغير عثمان وأبى بكر وسعد كثيرون!!.

لقد انتمى إلى الإسلام - كما يقول مونتغمرى وات - شباب من أفضل العائلات وخالد بن سعيد أفضل ممثل لهذه الفئة، ولكن هناك آخرون غيره وكانوا ينحدرون من أقوى العائلات وأشهر القبائل، تربطهم روابط متينة بالرجال الذين

يملكون السلطة فى مكة، وكانوا فى مقدمة أعداء محمد. ومن المهم أن نشير إلى أنه وجد فى معركة بدر أمثلة على الإخوة والآباء والأبناء والعم وابن الأخ الذين كانوا يقتلون فى صفوف كلا الحزبين . . ويمضى (وات) إلى القول بأن أهم فكرة نستخرجها من (هذا العرض عن المسلمين الأول) هو أن الإسلام الفَتى كان فى الأساس حركة شباب إذ أن معظم الذين تُعرف أعمارهم لم يتجاوزوا الأربعين عند الهجرة - وبعضهم كانوا أصغر كثيرا - وكثير منهم كانوا قدا اعتنقوا الإسلام منذ ثمانى سنوات ولم يكن الإسلام من جهة ثانية حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيلية صعاليك حطوا رحالهم فى مكة. ولم يستمد قوته من رجال الدرجة السفلى فى السلم الاجتماعى بل من أولئك الذين كانوا فى الوسط. ثم ما يلبث وات أن يقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه معظم الغربيين الذين يجدون أنفسهم ملزمين بتطبيق مقاييسهم الخاصة على تاريخنا. .

وإلى أى دين كان ينتمى هؤلاء الشباب المترفون الأغنياء ومتوسطو الحال الذين ينتمون إلى أشهر القبائل وأعلاها سلطة ومكانة؟ إلى الدين الذي كانت - حملات كتابه الكريم تتنزل منذ بدايتها الأولى (العلق، القلم وغيرها) صواعق على رؤوس الأغنياء والزعماء تلك الآيات التى «نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة على الإنفاق كثيرا.

الفصل الثانى
وسائل مقاومة الدعوة

أشرنا آنفا إلى خطة أعداء الدعوة الرامية إلى التشكيك فى نوايا الفقراء الذين سبقوا إلى الإسلام . . وكيف كان ذلك جزءا من حملة يراد بها التهوين من شأن الإسلام.

وقد ذكرنا كيف شهد الباحثون المنصفون اليوم بصدق الرسالة مستدلين بموقف الصبيان والشباب الذين دخلوا فى دين الله أفواجا . . فكان دخولهم شهادة حق أن هذا الدين من عند الله. من حيث تركوا ملاعب صباهم وما كانوا يتقلبون فيه من نعيم. وهم آمنون فى أسرلهم . . ثم فضلوا العيش فى ظل الإسلام بكل ما يحملهم من هموم ثقال ما كان أغناهم عنها . لو أرادوا. ولكنك تفتح عينيك . . فماذا ترى؟ إذا رأيت ثم . . .رأيت شبابا يعلن إسلامه اليوم. وفى نفس اللحظة يقدّم روحه طواعية فداء له. وقصة سباق صبيانهم فى بدر وأحد لا تخفى على أحد.

يقول المودودى:

(ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الأولى. وينضمون إلى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم. وحينما كانوا ينخرظون فى سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون فى صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشأو البعيد. حيث لم تتمالك الدنيا إلا الاقتناع بسحر الدعوة التى كانت تستميلهم بشدة. ثم تصنع منهم ما تصنع)[1].

تمهيد

حين تسمع صفير القطار الآتى من بعيد . . وحين ترى الطفل يوشك أن يعبر

(١) المبادئ الأساسية لفهم القرآن٢٢.

الطريق غافلا عن الخطر القادم .. فإنك تنذره .. ليستيقظ .. ويتوقف .. حفاظا على حياته .. إن إنذارك حينئذ يعنى:

أنك تحبه .. وتشفق عليه.. وسوف يظل موقفك هذا جميلا تطوق به عنق والديه.

وهكذا كان الإنذار الموجه إلى المشركين:

لم يكن إلا دليل رحمة ورأفة .. يستنقذ بها الحق حياتهم من خطر يراه الداعية المعصوم..

ثم هو الداعية المشهور له بالصدق والأمانة...

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا..

مالهم لا يفهمون .. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون!

مالهم كيف يحكمون.. حين يُصعِّدون الحرب تصعيدا بلا أثَارَة

من علم .. ولا هدى ولا كتاب منير؟

*كيف كان الأعداء يكيدون للدعوة

تعددت وسائل مقاومة الدعوة على مدار التاريخ تعددا يعكس إحساس الجاحدين بضعفهم حيا لها .. بقدر ما يشهد لها بالرسوخ والثبات على طول ما لاقت وتلاقى من مقاومة مستميتة.

[مثل من الحاضر]

سئل السلطان عبد الحميد:

ما هى أقوى دولة فى العالم؟

فقال: تركيا.

فقيل له: كيف وهى فى ذهن الناس «الرجل المريض)!!

فقال: إن دولة تتعرض لكل هذه المؤامرات .. ثم هى ما زالت باقية .. لهى أقوى دولة فى العالم!!

وهكذا الإسلام:

لقد تعرض لكل الخطط الجهنمية الرامية إلى إحباط مفعوله . . لكنه . . بقى . . وسيبقى .

فما هى وسائل مقاومة الدعوة . . وكيف انتهى كيدها إلى زوال؟

١ ـ الإغراء بالمال والجاه

قال عتبة بن ربيعة يوما لقومه ـ والرسول جالس وحده فى المسجد ـ (يا معشر قريش: ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا. عله يقبل بعضها.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ . فقال له:

يا محمد . . يا ابن أخى: إنك منا حيث قد علمت من السِّطة ـ أى المنزلة العالية فى العشيرة. والمكان فى النسب:

إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا . . جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا . حتى لا نقطع أمرا دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . .)

وإذا يجىء عتبة بالقلب الضارع والقول المعسول[١]. فإنه ﷺ لا يجامل فى الحق . . فقرأ عليه سورة فصلت بما فيها من النذر الجائحة . . ويعود عتبة بغير القلب الذى ذهب به . .

(. . لما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائى أنى سمعت قولا. والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة[٢]. يا معشر قريش أطيعونى . . وخلوا بين هذا الرجل ـ وبين ما هو فيه. فاعتزلوه:

---

(١) لاحظ قوله متلطفا: يا ابن أخى . . و: إنك منا حيث قد علمت.

(٢) الكهانة بالفتح معروفة وبالكسر: الصنعة.

فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم - وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم(١).

٢ - المقاطعة الاقتصادية

وفرض العزلة

وقد نبتت الفكرة فى رأس عبد الله بن أبى فيما حكاه القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى:-

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾(٢).

ولقد طبقها الكفار فعلا حين قاطعوا المسلمين. فلم يكونوا يتعاملون معهم فى بيع أو شراء . . حتى أكل المسلمون أوراق الشجر . .

وفشلت حرب التجويع . . وخرج المسلمون من المحنة أصلب عودا . . وأقدر على مواجهة التحديات . . فجاءت النتيجة على غير ما توقع الظالمون. وما تصنعه الدول الكبرى اليوم فى تعاملها مع الدول النامية يسير فى نفس الاتجاه . . إنها تلوح بالمعونات الاقتصادية. بغية فرض آرائها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع . .

وقد تلقى بفائض الغذاء لديها فى البحر طعمة للحيتان . . بدل أن يكون فى متناول الإنسان.

٣ - المتساومة على العقيدة:

(قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه أن يعبد آلهتهم مدة. ويعبدون الله مدة)(٣)

وذلك قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

---

(١) سيرة ابن هشام ج١/ ٣٣٣ - ٣١٤.

(٢) المنافقون: ٨

(٣) فتح القدير.

أى أنهم ساموه ليلين لهم. . فيلينوا له.

والآية الكريمة تكشف عن أبعاد الاقتراح المغرض. . الرامى إلى البعد به عن العقيدة رويدا حتى لا يكون هناك ارتباط بها أصلا. .

وكانت للعرب شجرة تسمى «ذات أنواط» يعلقون عليها أسلحتهم ويعكفون حولها معظمين لها.

فسألوه ﷺ أن يجعل لهم «ذات أنواط» فنهاهم.

ولما أسلم أهل الطائف. طلبوا منه ﷺ إرجاء هدم «اللات» فرارا من صدمة تصيب نساءهم وصبيانهم فرفض ﷺ وأمر بهدمها.

وقد أمر عمر رضى الله عنه بهدم شجرة الرضوان لما أحس بالخطر الناجم عن تعظيمها. ولما رأى «كعب الأحبار» يخلع نعله ويلمس برجله الصخرة عند فتح المقدس.

قال له: ضاهيت والله اليهود يا كعب.

إن المؤمن الحق يفرغ حياته فى قالب الاسلام. ويظل وفيًا له. وإنه ليفضل أن يبقى على دينه ولو خسر الدنيا كلها. بل إذا سلم له دينه. . فما خسر من الدنيا نقيرا ولا قطميرا.

وقد اقترحوا عليه ﷺ: الإتيان بغير القرآن أو تبديله . ومن وراء الاقتراح رغبة فى التشويش. يحققون فى غبشه بعض مآربهم. . ويحكى القرآن الكريم هذا الاقتراح. رافضا له. من حيث لا يملك الرسول سلطة تنفيذه . . ملوحا بالعذاب المرصود لمن حاول ذلك. قاطعا فى نفس الوقت إطماعهم. وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس :١٥].

ولقد جاء التخويف بعذاب الآخرة مناسبا قوما آفتهم الكبرى أنهم لا يؤمنون به. ولا يرجون لقاء الله تعالى فيه.

والماكرون اليوم يسيرون فى نفس الاتجاه إرادة تمييع العقيدة فلا يبقى فى الصدور حماس لها . .

(ولذا جاء النهى صريحا عن الموافقة على فكرة التقريب بين الأديان أو مُهَادَنتهم على حساب العقيدة.

فإن فكرة التقريب تخدم اليوم فى الحقيقة الفكرة الماسونية وشبيهاتها من الجمعيات ذات الطابع العالمى. التى تقف من ورائها الصهيونية العالمية. وكلها تهدف إلى إزالة حب الناس لأديانهم. ولا يبقى على وجه الأرض سوى العصبية اليهودية)[1].

ومن هنا يجىء الأمر الإلهى صريحا فى قطع كل أمل فى صدور الذين كفروا. بإحباط كل محاولة تهز العقيدة. أو تشوش عليها.

وذلك فى قوله تعالى :ـ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ .وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

* إسقاط الحماية عن الرسل

بعد فشل الاتصالات المباشرة . . يتقدم الماكرون على الطريق خطوة أخرى ـ إرادة تجريد الرسول من كل سند للدعوة.

وفى عهده ﷺ (خطوا فى ذلك ثلاث خطوات. انتهت كلها بالفشل[2] بل إلى نتائج عكسية لما توقعوه:

فقد ذهب وفد من أشراف قريش إلى أبى طالب مرتين. حتى اضطر أبو طالب إلى أن يكلم محمدا ﷺ فى الأمر. بأسلوب اشتم منه الرسول رائحة استسلام عمه لقومه.

فقال له قولته المشهورة: «يا عم . . والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر

(١) د. محمد حسين. حصوننا مهددة من الداخل.

(٢) من بحث للدكتور عبد الحليم عويس.

فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه . . ما تركته.

ثم استعبر الرسول فبكى. فقال له عمه: اذهب فقل ما أحببت. فو الله لا أسلمك لشىء أبدا. ففشلت بذلك المحاولة الثانية للمشركين.

وفى المرة الثالثة: جاءوا لأبى طالب بعرض جديد:

مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد فتى فى قريش وأجمله.

على أن يأخذه ويعطيهم مكانه الرسول. فرد أبو طالب هذه المرة ردا سيئا قائلا لهم: «اتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه. هذا والله لن يكون أبدا ولم يكتف أبو طالب بحمايته الشخصية للرسول فقام بتجميع بنى هاشم وبنى عبد المطلب. ودعاهم لحماية الرسول والقيام دونه.

فقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه. إلا ما كان من أبى لهب»

وكان هذا الرد المتحدى من أبى طالب . . ليعوض به خاطر الضعف الذى بدا منه آنفا.

وهكذا يدبر الحق تعالى لدعوته . . حين يجعل الجاحدين لها عونا لها وفى نفس اللحظة . . لتكون عليهم حسرة . . ثم . . فى النهاية يغلبون وخسر هنالك المبطلون.

[افتعال المشكلات]:

من وسائل مقاومة الدعوة افتعال المشكلات بين يدى الداعية لشغله بها عن مواصلة التذكير:

لما بدأ النبى ﷺ يدعو إلى الله عادته قريش فقال بعضهم لبعض: فرّغتم محمدا من همه. فردوا عليه بناته. فيشغل بهن وبَهمهن عنكم. فمشوا إلى عتبة ابن أبى لهب فقالوا له:

طلق بنت محمد ونحن تزوجك أى امرأة من قريش تشاء فقال لهم: إن زوجتمونى بنت سعيد بن العاص فارقتها. فزوجوه. ففارقها ولم يكن قد دخل بها. فأخرجها الله من يده كرامة لها. وخلف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكذلك فعل عتيبة بأم كلثوم. فطلقها استجابة لرغبة أمه وأبيه.

ثم ذهبوا بعد هذين الولدين إلى «أبى العاص بن الربيع» قائلين له: فارق صاحبتك «زينب» ونحن نزوجك أى امرأة من قريش تشاء. فقال أبو العاص: لا والله لا أفارق زوجتى. وما أحسب أن لى بدلا منها إمرأة من قريش وكان رسول الله ﷺ يثني عليه فى صهره خيرا.

التهديد بالجلاء

احتج المعاندون ببشرية الرسل المانعة - فى نظرهم - من الإيمان بهم .. ولما أعيتهم الحيل ... وطوقهم الحق من كل جانب لجأوا إلى التهديد بالإخراج من الأرض .. أو الخروج من الإسلام والدخول معهم فى الكفر. يقول سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[إبراهيم: ١٣ : ١٤].

وتأمل كيف لعب الغرور برأس القوم حين أضافوا الأرض إلى ضميرهم (أرضنا)... وبدا الرسل غرباء فى ديارهم .. ولكن الحق سبحانه يُخرج الظالمين ... لا من أرضهم .. ولكن من الدنيا كلها بالهلاك .. ثم يبقي المؤمنون .. والبقاء للإصلاح دائما.

وليفهم الدعاة الدرس:

فمهما تسلط الطاغون .. فإن تسلطهم فى النهاية إلى زوال..

فالملأ القابضون على زمام الأمر يلوحون بالطرد .. طرد القلة التى لا تملك شيئا .. وخلال هذا الليل الذى يرخى سدوله القاتمة ينبعث من الآية الكريمة معنى التفاؤل الذى تنشرح به الصدور .. فمن المؤكد: هلاك هؤلاء المهددين بالإخراج لرسلهم إن لم يعودوا في ملتهم . ثم انتصار المؤمنين المعتصمين بالتوكل .. الذين صمدوا للتهديد والتخويف.

ذلك بأنهم يخافون مقام الله. ووعيده يوم الحساب..

معبرين عن هذا الخوف بالالتزام بالعقيدة التزاما يرفض المساومة عليها .. ولم

بملء الأرض ذهبا.

* التخويف بالآلهة

ولا ينسى الماكرون أن يلوحوا بقدرة آلهتهم على الانتقام ممن خرج عليها .. وها هم أولاء يخوفون هودا عليه السلام منها .. زاعمين بأنها فعلا ألحقت به أذى ظهرت آثاره فيما يزعمه من دين لا عهد لهم به.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[هود: ٥٣، ٥٤].

وإذ يصل الأمر بالقوم إلى التهديد بقوى وهمية لا وجود لها وبالتالى لا تأثير لها .. فإن هودا عليه السلام يتحداهم أن يكون ذلك قد حدث.

ثم لا يكتفى بذلك بل يعلن البراءة من شركائهم .. قاطعا أطماعهم حتى لا يعيدوا الكرة .. مستهينا بكيدهم مع آلهتهم جميعا .. راجعا بهذا التحدى وهذا الثبات إلى الحق سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٤: ٥٦].

وهو نفس التحدى الذى واجه به نوح عليه السلام قومه فيما حكاه القرآن الكريم عنه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ١].

[التلويح بالعدوان]

ويلوِّح المجرمون بالعدوان الغاشم إطفاء لجذوة الحقد فى أنفسهم .. وفى نفس الوقت إعلانا عن عجزهم أمام سطوع أدلة الحق..

﴿لئن لَّمْ تنته يا نوحُ لتكونَنَّ من الْمَرْجُومين﴾ [الشعراء: ١١٦].

بل لقد نفذوا تهديداتهم فعلا..

وقصص التعذيب فى حياة المسلمين الأولين غنية عن التعريف. وهى شاهدة بحكمة الحق سبحانه الذى امتحن المؤمنين بهذا البلاء .. فخرجوا أنقى جوهرا.. وأقدر على مواصلة الكفاح فى أحلك الظروف.

[استعداء السلطة]

ولا بأس من إثارة غضب الحاكم على المؤمنين ليضع نيابة عنهم حدا لانتشار الدعوة وهيمنتها:

وذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فانظر كيف تنادى الملأ بالإثم والعدوان .. ومعصية الرسول وهم جميع وفى أيديهم أزمَّة الأمور .. ووسائل البطش .. ومع قلة المؤمنين إلا أن كيد المجرمين لم يزحزحهم من مكانهم .. الأمر الذى حمل المعتدين على الاستعانة بالسلطان بعد أن فشلوا فى مهمتهم.

ولا يَقِلّ الحاكم هنا عن الملأ خوفا من سطوة الحق الذى فرض احترامه على المجتمع حين استمسك أهله بدينهم فى ظروف كالليل البهيم .. وذلك فيما تشير إليه الآيات من تهديده البالغ مداه: فهو: لن يقتل - بتخفيف التاء - ولكنه يقتل بتشديدها أى سيُجرى الدماء أنهارا...

وهو يتحدث عن نفسه بضمير العظمة التى يصطنعها اصطناعا .. ثم لا يكفيه ذلك بل يعلن. ﴿إنا فوقهم قاهرون﴾

ولو كان واثقا من تنفيذ تهديده ... لما احتاج إلى كل هذا الطوفان من الغضب؟

وها هو ذا موسى عليه السلام يرد كيدهم إلى نحورهم .. داعيا قومه إلى مزيد من الثبات الواصل بهم إلى النجاة:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويبدو أن الحملة المغرضة أوشكت أن تحقق بعض أغراضها فيما أبداه قوم موسى من تذمر حكاه القرآن الكريم فى نفس الموضع ...

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾

ولكن الله تعالى يُنجز وعده بنصرهم .. ويحقق ظن رسولهم...

﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩: ١٣].

[تحريض الجمهور]

عندما يحرض الحاكم الناس ضد دعوة الحق فإن ذلك أمارة الوصول إلى المعركة الحاسمة. ويأخذ التحريض اتجاهات شتى:

أ ـ للعقيدة جذورها فى النفس وتوجيه حياة الإنسان مهما كان وضعها. من أجل ذلك يلوح الحكام للناس بأن الداعية يحاول إقصاءهم عن عقيدتهم وهى قاعدتهم:

وذلك ما حكاه القرآن الكريم عن فرعون:

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦].

ب ـ ولما كان الشعب ضد كل من يخرب مرافقهُ ومظاهر عمرانه فقد استغلها الطاغية أيضا:

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

جـ ـ وقد يلجأ إلى وصم الداعية بأنه لا يطلب دينا ـ وإنما هو طالب دنيا .. نَزَّاع إلى الحكم والاستئثار بالسلطة:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

[اللمز والازدراء]

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥١: ٥٢].

إن فرعون هنا يحيط نفسه بهالة من الكبرياء الكاذب .. لافتا أنظار قومه وقد خاف من إعلان إيمانهم بموسى ـ يلفتهم إلى ما يتقلب فيه من مطارف الملك فى الوقت الذى يبدو موسى ضعيفا. فقيرا. وحيدا. ولا يكاد يبين لو أراد الكلام

يقول ابن كثير:

(أفلا تبصرون أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك. يعنى وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء . وهذا كقوله **﴿فحشر فنادي فقال أنا ربكم الأعلى﴾**

.. يعنى فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام. وقد كذب.

.. وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية . وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة تبهر ذوى الألباب..

وموسى هو الشريف الرئيس الصادق والبار الراشد . وقوله ﴿ولا يكاد يبين﴾ افتراء أيضا:

فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره من جهة تلك الجمرة. فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة لسانه ليفقهوا قوله وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك فى قوله قد أوتيت سؤلك يا موسى)

[المجادلة بالباطل]

يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وإذ يرحب الإسلام بالدليل المقنع الصادر من قلب مسترشد فإنه ينعى على قوم يجادلون بلا دليل.

وهم كما يصفهم خالقهم سبحانه:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

[حرب التشويش]

وفى مرحلة من مراحل الجدل العقيم (بعث كفار مكة بعضهم بما يمتحنون به النبى ﷺ . فقالوا:

«سلوه عن رجل طواف فى الأرض وعن فتية لا يدرى ما صنعوا وعن الروح. فنزلت سورة الكهف)[1].

وأضاف المشركون إلى ذلك محاولات يراد بها التشويش على القرآن الكريم حذر تأثير جاذبيته. وذلك بافتعال مظاهرات من الصياح والصخب. أثناء تلاوته.

يقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا

(١) ابن كثير.

فيه﴾[فصلت: ٢٦]

ثم صعدوا حملة التشويش باستيراد وسائل اللهو واللعب لتحول بين القلوب وبين استيعاب حقائق القرآن ومعانيه:

يقول سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

[الحرب الإعلامية]:

ماذا يريد الأعداء قديما وحديثا من وراء الحرب الإعلامية؟ إنهم يريدون الظهور أمام المسلمين بمظهر القوة التى لا تغلب والمالكة لكل أسباب الحياة.

وإنهم ليحاولون بمكر الليل والنهار تعميق الإحساس بهذه الهالة .. بغية الوصول إلى تنازل المسلمين عن مكانهم العالى - ليعيشوا تحت رحمة هؤلاء الأقوياء أذلاء صاغرين .. فلا يرتفع فى وجههم صوت .. ولا تهم لمقاومتهم إرادة: إنما هى الجماهير الغافلة الذلول. تحنى ظهرها فيركب وتمد له أعناقها فيجز وتحنى له رأسها فيستعلى. وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى.. والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة .. وخائفة من جهة أخرى[1].

أما الخداع فقد حقق فعلا بعض النجاح:

فهذا قارون يخرج على قومه فى حملة إعلانية مغرضة .. فيسيل لعاب ضعاف الإيمان وما أكثرهم فى كل زمان ومكان.

ولولا يقظة المؤمنين العارفين بحقيقة الحياة .. الذين أحبطوا مفعول هذه لولا هؤلاء المؤمنين لكان ما كان.

يقول سبحانه:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا

(١) فى ظلال القرآن.

أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩].

ولأن فى الأمة - رجالا مؤمنين - يكابرون الحملة المغرضة .. فقد أنهى القدر الأعلى حياة هذا المغرور.. بعد أن أثبت هؤلاء الرجال المؤمنون صحوة الأمة وتصديها للانحراف.. وجدارتها بنصر الله الفتح وذلك قوله تعالى:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

أما الخوف: فهو سلاح الماكرين للتمكن من رقاب المستضعفين .. بعد أن فشلت التصفية الجسدية فى إطفاء نور الله .. وهذا واحد من - فلاسفتهم يؤكد هذا المعنى:

يقول الباحث الألمانى «جود»:

(إن العواطف التى يمكن إثارتها بسهولة هى عواطف:

المقت: والخوف.

والتى تحرك جماعات كثيرة من الدهماء.. بدلا من الرحمه. فالذين يريدون أن يحكموا شعبا لغاية ما لا ينجحون حتى يلتمسوا لها ما يكرهها ويوجدوا له ما يخافه. فلم يعد من دواعى العجب أن المكونات القومية فى هذا العصر فى معاملتها لجيرانها. إنما تنقاد بعواطف المقت والخوف. فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونهم. وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومى).

وهذا الذى يتنادون به. هو ما يدعو إليه الشيطان ضمن خطته فى تقييد حركة الإنسان بالخوف. ولولا رحمة الله تعالى بهذا الإنسان لهلك.

يقول سبحانه:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا

﴿رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وتبوء الخطة بالفشل . . ويحس الماكرون بالهوان أمام أناس لا تخاف . . بل يزداد إيمانها في خضم المحنة . . بل ويثمر الإيمان أينع ثمراته فى ذروتها . . وإذا بالمسلمين على ما يقول الشاعر:

من تلق منهم فقل: لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

بينما يصير المغرضون . . كالذبابة ضآلة . . وحقارة وضعفا:

وإذا رامت الذبابة للشمس غطاء . . مدت عليها جناحا

وما يفعل الكيان الهزيل فى مهب العواصف الهوج

مهب ريـــاح ســدة بجنــاح وقابل بالمصباح ضوء صباح

[السخرية]

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وهذا هو قدر الأنبياء والمصلحين عبر الزمان:

وإذا كانت اللغة تقول:

(سخَّرته فى العمل ـ بالتثقيل ـ استعملته مجانا . . وسخر الله الإبل ذللها وسهلها)[2].

إذا كانت اللغة تقول ذلك فربما جاز لنا أن ندرك سر حملة السخرية المواكبة للدعوات: إنهم يريدون بها توهين الحماس المندفع . . وتسخير الطاقة المؤمنة لحساب الباطل. ويتكفل الحق سبحانه بالسخرية من هؤلاء ردا لكيدهم فى نحورهم ﴿سخر الله منهم﴾.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا

(١) المبادئ الأساسية لفهم القرآن٢٢.

(٢) المصباح.

﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ .فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[هود:٣٨:٣٩].

[تهم باطلة]:

وفى نطاق الحملة الإعلامية يكيل المفلسون التهم كيلا .. بلا دليل .. اتهموا الرسل عليهم السلام: بالسحر .. والجنون .. والكذب .. إلى غير ذلك من أباطيل يشهد الواقع بتفاهة العقول الناضحة بها بينهما هم أول الشاهدين على أنفسهم بالكذب.

يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر:٢٣:٢٤].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

إن تهمة الجنن كتهمة السحر كما قيل:

١ - شهادة بإفلاسهم فى ساحة البرهان والعقل.

٢ - ثم إنها تعبير عن شعور الخيبة من أناس تزايلهم أحلام العظمة المزيفة.

إزاء قوة الشخصية الكاسحة فى شخص الأنبياء عليهم السلام. والتى تهدم بناء المغرضين المزيف .. ولا تجعل لتهمة تصدر عنه قيمة .. بل إنها شهادة للمسلمين بالكمال.

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لى بأني كامل

٣ - وإذن فهى أولى بتهمة الجنون منه. بهذه الشبه التى أوردوها

وحين رموه ﷺ بتهمة الضلال والغى. قال سبحانه:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

ولو قال سبحانه (ما ضل محمد وما غوى) لكان مجرد رد للتهمة بلا دليل على نفيها. ولكنه تعالى: نفى الضلال.. وعلل هذا النفى بأنه:

﴿صَاحِبُكُمْ﴾ الذى عاشرتموه ولم تجربوا عليه ضلالا.

فمن أين هذه التهمة وأنتم طليعة الشاهدين ببطلانها

ثم إن حق الصحبة والجوار يفرض عليكم التريث والانتظار.

إن مجرد نفى تهمة الضلال قد يزيد المعاند عنادا.

ولكنه تعالى أحرج عقولهم. فخرست ألسنتهم.

[الرصيد الهائل]:

ولا تصدر هذه الحملة من فراغ فمن ورائها عقول ذكية وأموال طائلة مرصودة كلها لعرقلة مسير الحق وإبطال مفعوله.

يقول سبحانه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وأحيانا.. يقبضون الثمن

بل أحيانا يَسْخَرا لعدو من معتقداتنا.. وندفع له نحن الثمن؟

ولقد رمتنا الأنباء أخيرا بما فعله أعداؤنا الذين كتبوا اسماءنا المقدسة بل ونقشوها على الأحذية!

واشترينا الأحذية نحن المسلمين.. ودفعنا لهم ثمن الإهانة!

ومالأمر المجلات الخليعة.. والأفلام الهابطة.. والنشرات المغرضة ما أمرها ببعيد.

وكلها كلها . . تصد الناس عن دين الله . . ثم نكتب لها نحن الذيوع والانتشار على حساب جيوبنا . . وقلوبنا

[حرب التخذيل]:

ولقد كان أهل الكتاب على صلة بالرسالات . . ولهم بها سابق علم . . وربما فتن بهم العوام لهذا السبب . . فقد تواصوا بالإيمان أول النهار . . ثم إعلان الكفر آخره . بغية إثارة الشك فى صدور الجمهور المخدوع بهم والذى يقول: لولا أنهم وجدوا فى الإسلام عيبا ما ارتدوا عنه . . وهم العلماء الفاهمون.

وذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

*** فرق تسد:**

ويلجأ الأعداء إلى سياسة فرق تسد. . ليتسنى لهم ركوب الموجة والعيش على أنات الضحايا . . فى معارك مستمرة تنتهى على أى حال لصالحهم:

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤].

*** التصفية الجسدية:**

وكما يلجأون إلى التفريق بين طبقات الأمة . . حتى يتكفل بعضها بقتل بعض . . فإنهم . . وفى ذروة المعركة يلجأون إلى التصفية الجسدية بالموت البطىء عن طريق التعذيب . . أو القتل . . وقد يكون القتل إحراقا بالنار . .

ولا بأس من موجة إرهابية تستهدف زعماء الأمة المؤمنين. . وقد جرب اليهود والمشركون هذه الوسيلة مع رسول الله ﷺ . . ونجاه الله من كيدهم وبقي الدرس. . أو يجب أن يبقى فاتحا أعين الغيارى على مكر الأعداء . . الذين صعدوا المعركة إلى حد التخلص من المصلحين بعد أن أعيتهم الحيل . .

وواجبنا ألا تملكهم بالخوف من رقابنا: مدركين أن ضراوة الأعداء فى التنكيل

منا دليل على نجاح دعوتنا.

(ينبغى أن نقيس الدعوات بمقياسين بل متعارضين متناقضين:

نقيس أثرها بالرضا والقبول من الموافقين. ونقيسه بالسخط والنفور من المخالفين. وعلينا أن ندرك أنه كلما اشتد السخط واضطرم الغيظ علمنا موقع الرمية من الهدف الصميم. واتضح الهدف الذى من أجله يسخطون)[1].

يقول الشيخ محمد الغزالى ملخصا قصة الحق والباطل وتبصرة وذكرى:

[بين الحق والباطل]

بدأ هنا الرسول فوضع فواصل غليظة بين الحق الذى اهتدى إليه وبين الباطل الذى توارث الناس العمل به والاحتكام إليه. أنه من ناحية العدد قليل بنفسه وإخوانه وهؤلاء كثيرون بأنفسهم ونظمهم المألوفة وأفكارهم القديمة وأوضاعهم العتيدة فلابد إذن من قطع كل أمل فى أن يتفق معهم أو يخضع لهم. لقد سلك منهجا غير الذى ألفوا ولن يجمعه بهم طريق، ما داموا على معتقداتهم الأولى...

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ .وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ .لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

فى هذه السورة تسمع صرخة الحق العنيد عندما يفترض أن اللجاجة لن تثنى لأصحاب الحق عزما أو تقيد لهم قدما.

أعباء الرسالة:

على أن الصبر على أعباء الرسالة التى تدبر للإنسانية مستقبلا ضخما يعارضه من الناحية القابلة صبر من الجامدين على أوثانهم المقدسة واستماتة فى الدفاع عنها. هنا يدخل الفريقان فى مبارزة بالصبر أقسى وأنكى من المبارزة بالسلاح.. والفائز فيها أطوال الفريقين إصرارا وأشدهم تحملا. وأكثرهم بذلا وأرضاهم بتقديم التضحيات الجسمية وأجرؤهم على اقتحام الأهوال العظيمة. ولن يكتب النصر للإيمان إلا إذا توفرت هذه الشرائط كلها لاتباعه].

---

(١) القصص القرآنى ١٤١ ـ د/ طه مقلد.

الفصل الثالث
الأمة الإسلامية
من العبرة .. إلى الاعتبار

ذلكم هو التوحيد .. وما يثمره من حضارة عالمية.. لا يستقل بخيراتها المسلمون وحدهم..

بل إن ظلالها الوارفة لتمتد .. وثمراتها المباركات لتدنو .. حتى ينعم بها الإنسان.. حيثما كان..

ولكن المعاندين من أعداء أنفسهم يبسطون أيديهم بالأذى .. وألسنتهم بالسوء فى محاولات مكرورة لإحباط مفعولها..

ولقد كان المؤمنون لهم بالمرصاد .. فجاهدوهم حق الجهاد .. وردوا كيدهم إلى نحورهم .. فارتدوا صاغرين.

وإذا كان للمعاندين اليوم أحفاد .. يضاهئون قولهم وفعلهم.. فإن واجب الأمة الإسلامية اليوم .. يفرض عليها أن تتصدى للمكر السيء .. حتى لا يعيد التاريخ نفنسه .. وذلك بتجاوز موقف المتأمل للعبرة . إلى مبادرة المعتبر الآخذ بدوره الإيجابى الفعال.

وإنه لواجب من الشمول بحيث لا يفلت [illegible] المسئولية أحد.. فالا[illegible]اد .. والحكومات.. والعلماء .. لكل دورُه المؤثر [illegible]عائد بالأمة إلى مثل ماضيها الجليل..

[المسئولية المشتركة]

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

والآية الكريمة تشير إلى ما يلى . . كما قال المفسرون:

أ - الإمام مأمور بالاستقامة أولا. ﴿فَاسْتَقِمْ ..﴾ على أن تكون الاستقامة طبق المنهج الإلهى:

﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾

والأمة . . مع الإمام . . وبقيادته مسئولة معه:

﴿.. وَمَن تَابَ مَعَكَ ..﴾

والتحذير الخطير يتجه إلى الجميع . . من القمة والقاعدة:

﴿.. وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

فالإمام . . والرعية منْهيّون عن الغلو. سواء كان الغلو فى الخط - المستقيم: إفراطا . . أو من تحته . . تفريطا.

ومع هذا . . فهناك المسئولية المنوطة بكل طرف . . بعد هذه المسئولية المشتركة . .

مع التنبيه إلى أن استقلال كل طرف بمسئوليته لا يعفى الطرف الآخر . . وإنها على التحقيق متداخلة . .

غاية ما هنالك . . أن مسئوليةً قد تكون أربى من مسئولية . . يتحملها طرف تحملا مباشرا . . والآخر من ورائه يتحمل كفلا منها.

*** مسئولية الحاكم أولا:**

تجيء مسئولية الحاكم فى المقدمة. عبر سلم الأولويات. ثم هى بحسب آثارها آكد وأوثق:

أما عن درجتها فنقرأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٨ : ٥٩].

يقرر أهل العلم أن الله تعالى حمّل الحكام أولا مسئولية الحفاظ على الأمانة التى نيط بهم حفظها..

ثم إرساء دعائم العدل .. حتى تمضى الأمور على السداد . فإذا تم ذلك أولا .. انتهت مسئولية الحاكم لتبدأ مسئولية الأمة .. بالطاعة .. وذلك ما أشارت إليه الآية التالية.

وقد كان ﷺ ـ وخلفاؤه من بعده ـ يوصون أمير الجيش بالتقوى ثم بأن يكون خيرا فى معاملته لجنده..

ويعنى ذلم أن يقيد نفسه بضوابط التقوى .. فلا يَحيد عن الخط المستقيم. واضعا نفسه فى موقع التضحية والمصابرة. فإذا تعلق الأمر بأتباعه كان مبنيا على التيسير والتجاوز ...

[الأسئلة الحائرة والجواب الحاضر]

يقولون متسائلين:

لا تزال المساجد عامرة بالركع السجود .. وملايين المآذن العالية .. والمنابر المزخرفة.. ولكن مع ذلك فنحن نتأخر..

١ ـ فهل تأخرنا لأننا ندعو إلى الباطل؟ كلا فالإسلام معدن الحق.

٢ ـ هل لضعف الإسلام وقِدَمه .. فلم يعد يواكب العصر

كلا .. فالإسلام جديد دائما .. وهو فقط باهت فى عقول باهتة. بل إنه قديم .. جديد ... معا.

وأعظم المبادئ ما كان قديما .. ثم ظل على مر الزمان جديدا.

وهذا هو رئيس ألمانيا الاتحادية يعترف بأن القرآن الكريم هو الذى فسر علم الأجنة.

٣ ـ هل لقلة أعدادنا .. أو ندرة مواردنا؟

كلا: فأعدادنا أكثر من اليهود .. وأموالنا .. أكثر .. وعلماء الكون لدينا أوفر..

إن القصور ليس فى الإسلام . . ولكن التقصير من المسلمين . . وخروجا من هذا التقصير وانصافا للإسلام من أنفسنا لابد من تحديد المسئولية . . بيانا لدور كل مسلم . . من وراء الثغرة التى يحرسها . . حتى لا يؤتى الاسلام من قِبَله.

[مسئولية الأفراد]

يقولون: ما أكثر العبر . . ولكن ما أقل الاعتبار . وإن شئت قلت ما أغزر العبرات يسكبها الكسالى عند حائط المبكى . . دون أن يكلفوا أنفسهم اقتحام العقبات وصولا إلى الكمال.

ولو أحس كل مسلم بمسئوليته المباشرة عن مستقبل الإسلام لما وصلت أمتنا إلى ما وصلت إليه الآن . . مما لا يسر صديقا ولا يغيظ عدوا.

قال الطالب المخلص:

الحكومة هى المسئولة عن إصلاح ما أفسد العطار . .

ألم تسمع عن الحاكم الإسلامى يقول:

«لو عثرت شاة بالعراق لكنت مسئولا أنى لم أسو لها الطريق».

قلت له نعم . . الحكومة مسئولة . .

ولكن أنت أيضا مسئول عن إبلاغ الحاكم عن هذه الحفرة فى عرض الطريق . . وبالأسلوب الذى لا يحول الحفرة . . إلى قبر مظلم.

ومسئول كذلك عن هذا الطريق نفسه ليظل مستويا . .

والذى حمَّلك هذه المسئولية هو الإسلام نفسه . . والذى نهاك عن إلقاء القاذورات فى الطريق . . ثم أمرك بإماطتها لو وجدتها . .

وإذن . . فكلنا فى الهم شرق.

وحبذا لو شغلتنا مسئولياتنا المباشرة عن التباكى والإسراف فى اللوم . . لنوجه طاقتنا وجهة إصلاحة بانية.

إن شخصية هذا الطالب المضمخة بالصدق . . المعطرة بالإخلاص . . ينبغى أن تعبر عن هذا الصدق وهذا الإخلاص بعمل جاد يتحلل به من مسئوليته المباشرة

تجاه أمته.

وإلا .. فإن الغيرة على الإسلام وإن كانت محمودة.. وانتقاد الحاكم وإن كان فى حق لا ينهى دوره المرموق .. (ومع أن الإسلام منهج إلهى. إلا أنه خطاب للناس . ولا يقوم إلا بجهد من الناس وأخذ بالأسباب.

فالإسلام لا تتحقق فرائضه وتعاليمه فى الأرض بعصا سحرية مترتبة على المقدمات.

وقد نظم المنهج الإسلامى حياة البشر بحيث تدور كلها فى فلك واحد . وتتجه إلى غاية واحدة.

وعلى قدر ما يجاهد الناس فى سبيل إقامة الدين. ويجاهدون فى أنفسهم وفى أهليهم وفى أرض الله الواسعة تكون النتيجة ويكون ما يكون من تغيير وتطور إلى الأفضل ببركة هذا السعى وما يتركه من آثار طيبة فى الواقع الإنسانى.

وحين بعث الله نبيه محمدا ﷺ برسالته إلى الناس أنزل عليه قوله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِر﴾** فقام فبشر وأنذر ودعا إلى الله تعالى...

.. إن الإيمان حقيقة ذات تكاليف .. وأمانة ذات أعباء ولابد لأهل الإيمان أن يُختبروا ويتعرضوا للفتن حتى أنبياء الله وتعالى ورسله تحققت فيهم سنة الابتلاء)[1].

[عوائق .. تقيد خطوانا]

من سوء تدبير الإنسان أن تحل به النعمة .. ثم لا يشكرها بحسن استغلالها وحمايتها .. فصارت النعمة بسوء اختياره .. قيدا .. بدل أن تكون سعدا. هناك أناس يعلمون .. ثم لا يعملون.. وإذا عملوا لا يخلصون.

وتلك آفة تضاف إلى ما رمتنا به المدينة الحديثة من أدواء لخصها بعضهم فى: مال .. لا ينفق وقلب فارغ وبدن معطل . ومحبة لا تتقيد برضا المحبوب . ووقت مضيع وفكر يجول فيما لا ينفع. وخدمة لمن لا يقرب من الله تعالى. والخوف ممن لا يملك خيرا ولا نفعا].

(١) محمد داود: الإسلام والزمن المقبل ٢١: ٢٢.

وليس هناك أجل من نعمة الإسلام التى يتقاضانا شكرها أن نشكرها بحسن العمل بها . . ولها . . موقنين أن الأمانى العذاب ليست من الأسباب الموصلة إلى التمكين للإسلام وتحكيم شريعته . . وإنما السبيل هو إطلاق سراح القوى الكامنة فينا بخاصة القلب وإلا فلن يكون صلاح ولا إصلاح (إن القلب كالنسر الذى يضرب بجناحيه فى طباق السماء. ولكنّا قيدناه بقيود المادة ثم أغرقناه فى حمأة المطامع والشهوات فكيف يطير نسر مقيد الجناح. غارق فى الطين؟

[الحقيقة التى تفرض نفسها]

إذا حطم المسلم هذه القيود . وانطلق لنصرة الإسلام عاملا آملا . . فإنه يخدم نفسه أولا بهذا الدين الذى هو سر بقائه . وإلا . . فللإسلام من قوته الذاتية . . ما يجعل منه القوة التى لا تغلب . . والتى تأخذ بيد أنصارها فى ساعة العسرة: (إن الإسلام ذاته قوة لا يحتاج إلى قوة اتباعه ليُؤَيدوه بها. بل هو الذى يؤيدهم بقوته فينتصرون . ولقد تأخر المسلمون . ورجع بهم الزمان القهقرى . . ولكن الإسلام نفذ من الحجب . ولبث يتقدم».

إن المبشرين ينفقون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ثم لا يأخذون واحدا حتى يأخذ الإسلام بغير مال ولا عمل تسعةٌ وتسعون.

الإسلام ينتشر اليوم بنفسه فى أرقى أمم أوربه . وفى أحط بقاع أفريقيا . والمبشرون لم يستطيعوا أن يُدخلوا في النصرانية «مسلما» واحدا. إنهم يجمعون الجهلة الذين لا يعرفون الإسلام. فيطعمونهم ويطمعونهم . . وينزل المبشر على القبيلة فى أواسط أفريقية ويُرغِّب. ويبقى سنة كاملة فلا يستجيب له منها إلا النفر المعدودون.

ثم يأتى التاجر المسلم الجاهل . . فينام عندهم. . ويأكل طعامهم فلا يأتى الشهر حتى تكون القبيلة كلها قائمة وراءه تصلىَ على دين محمد . . والمبشرون ينظرون.)[1]. وبهذا الإسلام القوى . .يشتد ساعد المسلم.

ثم يكون سلاحا من أسلحة القدر . .

---

(١) هتاف المجد ٣٩: ٤٠.

المهم أن تكون غضبة المسلم لله تعالى . . وعندئذ فلن يخاف الموت . . لأنه خرج أساسا طالبا هذا الموت.

القرآن فى حياة المسلم

وهكذا تحول المسلم بالقرآن نحلة:

لا تأكل إلا طيبا . . ولا تخرج إلا طيبا . .

وإذا وقعت على غصن فلا تكسره

وما كان تأثير هؤلاء التجار إلا ثمرة لتأثرهم القوى بالقرآن أولا:

يقول الدكتور جلال:

قال تعالى: ﴿ انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً وَجَاهدُوا بأَمْوَالكُمْ وَأَنفُسكُمْ في سَبيلِ اللَّه ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

١ - من الأمثلة الواضحة على تفسير معنى ﴿خفَافًا وَثقَالاً﴾ بما ذكرنا فعل الصحابة فى مباشرة الجهاد وهى على أشق الأحوال.

فقد ثبت أن «أبا طلحة» - رضى الله عنه - قرأ هذه الاية فقال لأبنائه - جهزونى جهزونى - للغزوة - فقالوا له: يرحمك الله لقد غزوت مع النبى حتى مات وغزوت مع أبى بكر حتى مات وغزوت مع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك، فرفض قولهم:

وشارك فى الغزوة وكانت غزواته فى البحر فاستشهد فلم يجدوا له جزيرة ليدفنوه بها إلا بعد أسبوع فدفنوه بها ولم يتغير طوال هذه المدة رضى الله عنه.

وروى أن «المقداد بن الأسود كان يتجهز للغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له «أنت عليل فقال: «استَنْفَرَ الله الخفيف الثقيل» . . فإن لم يمكنى القتال: كَثَّرت السواد وحفظت المتاع.

ورؤى عبد الله «ابن أم مكتوم» - وهو أعمى - فى حرب القادسية واقفا فى الجيش ويحمل معه علما فقيل له فى ذلك: فقال: أُكثِّر سواد المسلمين.

وأنا أهدى هذه الأمثلة الرائعة من جهاد المسلمين الأولين لأبطالنا على أرض سيناء وضفتى القناة ليستيقظوا موقف آبائهم من حب الله ورسوله واسترخاص الحياة فى سبيل نصرة الإسلام وعز الوطن فيصلوا مجد حاضرهم بماضيهم وليعيدوا إلى العالم أنهم خير أمة أخرجت للناس. يا أبطالنا الذين هناك: قلوبنا معكم وأرواحنا معكم ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

المعاصي ومستقبل الأمة

ما زال حديثي مع الطالب موصولا:

لقد شكا لي ما تعاني منه أمتنا من تمزق وانحراف. مكن أعداءها من رقابها. فصارت وهي العزيزة بالإسلام لا تستطيع أن تمد رجلها .. وفي وجه من تمد له يدها تطلب منه حبة القمح!!

وهذا صحيح:

ولكن صحيح أيضا أن ما وصلت إليه الأمة بسبب من معاصيها..

ولما كنا جميعا شركاء متشاكسين .. فرَّقتنا المعاصي .. ولم تجمعنا الطاعة.. فكان لابد من تحمل نتائج انحرافنا .. حكومة .. وأفرادا.

أعني أن يتجه كفل من اللوم إلى أنفسنا .. التي صنعت هذه النهاية الأليمة بنفسها...

من آثار المعصية:

تَتْرك المعاصي ـ ونحن جميعا شركاء فيها ـ آصارها على صحة الأفراد.. وعلى وضعها الاقتصادي .. والزراعي .. ثم على نظامها السياسي.. وما يترتب على ذلك كله من تداعي الأكلة الأجانب علينا .. فأخذوا ما في أيدينا أخذا ماكرا قد يكون بافتعال صراع يدمرون به أسلحتنا .. لندفع إلى مصانعهم من جديد ثمن لقمة العيش.. نشتري بها سلاحا جديدا .. نستعد به لجولة جديدة.

أليس هذا هو كل ما نشكو منه؟

أجل .. وإنا لمؤاخذون به جميعا.

ونذكر هنا قوله ﷺ:

(يا معشر المهاجرين. كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس . وأعوذ بالله أن تكون فيكم وتدركوهن:

أ ـ ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط يُعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون. والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم.

ب ـ ما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء . ولولا البهائم لم يمطروا.

جـ ـ وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان.

د ـ ولا حكَم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفد بعض ما فى أيديهم.

هـ ـ وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيهم إلا جعل الله بأسهم بينهم)[1].

(1) رواه أحمد وابن ماجه.

السنن الكونية
والسنن الاجتماعية

للسنن الكونية آثارها الحتمية . . والواضحة . . السريعة: فمن ألقى بنفسه من فوق الجسر فى لجة البحر . . غارق لا محالة . . ومن رمى بنفسه من الدور العاشر فوق الأرض فسوف تندق عنقه ويموت . . .

ومن أدخل يده فى النار . . احترقت يده.

هذا ما يقوله الواقع الماثل. إلا أن تدارك الإنسان رحمة من ربه . . فَتَحُول بينه وبين الموت . . فهو سبحانه خالق السنن . . وهو تعالى القادر على إحباط مفعولها . . وإذا كانت السنن الاجتماعية لها نفس الآثار الحتمية كالسنن الكونية إلا أنها لا تظهر فجأة . . وإنما على المدى الطويل . . بحيث لا تُرى آثارها فى نفس الوقت . . .

قلت هذا للطالب السائل المسترشد . . ثم وقفت به أمام آثار الفاحشة على مستوى الفَرْد والمجتمع . . والتى يلخصها العارفون فى أمور سوف ينتهى بها وجود الأمة المادى والأدبى . . قالوا.

أ - إذا ظهرت أعراض الزهرى على رجل . . فإنه يخاف عرض نفسه على الطبيب لأنه سيعرف أنه زنى.

ب - وهو دائما: قلق . . ممزق من جراء الإحساس بالذنب . . من شدة - خوفه من افتضاح أمره.

جـ - سوف يكون من صلبه لقيط يأخذ مكانه فى طابور اللقطاء الذين سوف يُصَفُّون حساباتهم مع المجتمع . . من بعد.

د - سوف يذيقه الله تعالى لباس الجوع بعد لباس الخوف . . لأنه لا يُنفق على زوجة قد تتحمل معه الضراء . . وإنما على عشيقة تمتص دمه.

[مسئولية العلماء والأمراء]

ما أجمل أن يجتمع الأمراء والعلماء فى لقاءات علمية . . يدور فيها الحوار الهادف بحثا عن الحق . . على أى لسان ظهر ذلك الحق . . إن اللقاءات الجماهيرية لن تحقق الهدف منها والذى سوف يضيع فى غمرة التنظيمات والاحتياجات. فضلا عما ينفق عليها من مال تحتاج إليه مرافق الدولة البالية . .

وهذا نموذج لذلك اللقاء المقترح لعله أن يكون مثلا يحتذى:

أ ـ قال الكسائى:

اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضى عند هارون الرشيد.

فجعل أبو يوسف يذم النحو ويقول:

ما النحو؟

فقلت ـ وأردت أن أعلمه فضل ما يذمه.

ما تقول يا أبا يوسف فى رجل قال لرجل:

أنا قاتلُ غلامك

وقال له آخر:

أنا قاتلٌ غلامك

أيهما كنت تأخذ به؟ قال آخدهما جميعا.

فقال له هارون: أخطأت ـ وكان له علم بالنحو ـ فاستحيا أبو يوسف وقال: كيف ذلك؟ قال: الذى يؤخذ بقتل الغلام. هو الذى قال: أنا قاتلُ غلامِك (بالإضافة لأنه ماض) وأما الذى قال: أنا قاتلٌ غلامَك (بالنصب) فلا يؤخذ. لأنه مستقبل لم يكن بعد.

كما قال الله عز وجل:

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] .

فلولا أن التنوين للمستقبل ما جاز غدًا. فكان أبو يوسف بعد ذلك يكثر من مدح

النحو. وأقبل على كتبه حتى أجاد فهمه مؤكدا ما قاله الشاعر:

مَنْ فاته النحو فذاك الأخرس وفهمه فى كل علم مفلس

ب - وفى مجلس آخر من مجالس الرشيد .. دار حوار بين الكسائى وأبى يوسف..

قال الكسائى لأبى يوسف:

هل يقع الطلاق فيما إذا قال الرجل لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار..

أو أنت طالق أن دخلت الدار

فقال: يطلق زوجته فى القول الأول.

فقال: أخطأت يا أبا يوسف لا تطلق لأن «إن» شرطية..

(وهى تمحض الفعل للمستقبل .. فالدخول لم يقع .. بخلاف الثانى فقد وقع الدخول فعلا).

من دروس الموقف

-١-

اجتماع الحاكم وأولي العلم مكسب فى حد ذاته .. يوحد أهم عنصرين يتحقق باجتماع كلمتهما مصلحة الأمة..

ويتأكد ذلك لو تصورتَ خلافهما .. وما يترتب عليه من بذل طاقة الفكر فى تدافعٍ سوف يبدد عافية الأمة فى صراع لن ينتهى...

إن الحاكم يمثل القوة المنفذة .. والعلماء يمثلون الحق المحمى بهذه القوة فى يد الحاكم...

والحكام والعلماء هنا يتناصحون .. ولا يتناطحون:

يتناصحون بالحَرْف .. ولا يتناطحون بالسيف! ذلك بأنه لا مصلحة للحق فى يد العلماء أن يهدم قوة تحميه .. ولا ثمرة للقوة تنطلق مدمرة فى غياب الحق..

إن انتصار أحدهما على الآخر هزيمة للفريقين معا .. وإلا .. فإن من أطفأ شمعة جاره سوف يعيش معه فى الظلام.

وعندما ينطفئ المصباح:

أولا يضيع كل أمل فى الصلاح .. وهل ننتظر من كيس الفحم أن يعطيك دقيقا؟

وثانيا: يعيث اللصوص فسادا فى بيت مظلم خرب ثم تنقسم الأمة على نفسها.. كل حزب بما لديهم فرحون...

-٢-

والحاكم فى هذا الموقف لا يستمد قوته فقط من جيوش جيشها ... وإنما يستمدها من الحق تعالى .. والذى جعل من العلم سلاحا ماضيا.. يمكِّن له فى الأرض ويذلل له كل صعب.

وقد هيأ له ذلك وقتا كافيا للتبحر فى مسائل العلم . . . وكان من الممكن أن ينفقه فى مواجهة حساده لو أنه لم يحصن ملكه بسورمن الحكمة عظيم.

- ٣ -

الحاكم هنا ليس مستمعا فقط . . ولكنه على شىء من العلم . . بل إنه ليدرك أدق مسائله على نحو يسلكه فى زمرة العلماء الفاقهين. . فى مادة هى من الجفاف بحيث يعز النابغون فيها.

- ٤ -

التنافس بين العلماء وارد . . وطبيعى . . وليس غريبا أن يحدث بينهم اختلاف . . فالناس بحكم جبلتهم يختلفون . . وتلك حقيقة قرآنية مقررة:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ولكن القضية هى:

على أى أساس يكون هذا الاختلاف . . ومن أى قاعدة ينطلق؟

وهل نحن راغبون حقا فى الوصول إلى الحق فى موضوع النزاع؟

وإذا ظهر الحق على لسان خصمك فهل أنت ملتزم بالرضوخ له؟

والموقف هنا يدل على أنهم بحكم الجبلة قد اختلفوا . . وهذا حقهم. . لكنهم أدوا ما عليهم من واجب الأدب لحظة الحوار. . .

ثم رضخ المحجوج أخيرا للحق بعد ما تبين.

وهكذا خصومة العظماء

وفى سيرة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم مُثل عليا .. فى طليعتها ما كان من معاوية رضى الله عنه .. واحتفاظه بحب على رضى الله عنه.. بل والتنكيل بمن يناله بأذى .. رغم ما كان بينهما من خلاف:

فى موقعة «صفين» قال رجل لمعاوية «رضى الله عنه» اصطَنعنى ـ أى قرّبنى ـ فقد قصدتك من عند أجبن الناس . وأبخلهم وألكنهم.

(من اللكنة وهى العجمة فى اللسان).

فقال معاوية: من الذى تعنيه قال:

أعنى على بن أبى طالب!!

فقال معاوية:

كذبت .. يا فاجر

أما الجبن: فلم يك قط فيه.

وأما البخل: فلو كان له بيتان .. بيت من تبر .. وبيت من تبن . لأنفق تبره قبل تبنه .. وأما اللكنة: فما رأيت أحدا يخطب أحسن من على إذا خطب. قم قبحك الله. ثم محا اسم الرجل من ديوانه.

ـ ٥ ـ

ومن أعظم الدروس هنا ما جاء على لسان الحاكم نفسه فى بيان أهمية اللغة دراسة وفقها..

وكيف أعان التعمق فيها على فهم أوثق لكتاب الله تعالى. يقول بعض الباحثين:

(لا توجد معرفة لا تمر باللغة . وبالتالى إلى التعبير:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

إن تأصيل اللغة ضمان لتأصيل المفاهيم.

وكلما غاب الوعى اللغوى اشتدت موجة الجدل العقيم والشقشقة اللفظية الرديئة وأهدرت الطاقات فيما لا طائل من ورائه.

وليحذر المسلمون اليوم مغبة الانحدار فى زخرف القول. لأنها بضاعة الملحدين الذين يلهثون وراء سيل من الكلمات الخاوية يرمون بها فى وجه كل إصلاح مثل عبارة التقدمية .. والرجعية .. والماضوية..

إن التزام لغة القرآن القريبة من وجدان المسلمين عن طريق منابر التأثير دافع أولّى للحصول على وعى مستنير فى الأذهان والقلوب).

-٦-

التسليم للحق بعد ما تبين .. وهو درس الدروس فى هذا الموقف فلم يكن فيه متعصب أقام به من غفلته سورا من الأوهام يصعب اختراقه.. إن المتعصب يحسب أن ناقده يريد كشف عيب فيه لكن العالم الحق:

يعتبر الناقد صديقا يُهدى إليه عيوبه .. إنه فعلا خصمه... ولكنه الخصم الشريف الذى: يقول .. ولكن بعلم.

ويفتى ... ولكن ... على نور

ويحكم ... ولكن ... بالدليل

-٧-

كل هذه القيم يدعمها .. ويقف من ورائها الحاكم نفسه بما آتاه الله من حكمة هادية وحكم رشيد.. وأبرز هذه القيم أن يظل القرآن الكريم نقطة الانطلاق .. وجامع الشمل والحكم الفصل .. وقد عاش العلماء والأمراء هذه الحقائق واقعا ملموسا .. ولم تكن أبدا شعارات جوفاء:

فقد صلى الرشيد إماما.. وقد احتجم..

فصلى أبو يوسف خلفه .. ومع أن الحجامة عند أبى يوسف تنقض الوضوء إلا أنه لم يُعد الصلاة.

وكان الأمر على ما قيل بحق:

(اختلفت الآراء. ولم تختلف القلوب . لأن نياط هذه القلوب قد شُدت بأسباب السماء . فلم يعد بعد لتراب الأرض عليها من سلطان).

وتلك ضمانة الاجتماع على جادة الصواب . . مهما كانت درجة الاختلاف:
وإذن فلن تجتمع أمتنا على ضلالـــة . . أما غيرنا: فينحرفون عن الخط:

فيكون ضلال الفكر سبيلا إلى تمزق النفس . . وتناقض الرأى . وحيرة الاتجاه.

-٨-

إذا كان الكسائى قد وجد على أبى يوسف . . فإنه لم يتخذ ذلك ذريعة إلى الوقيعة بمؤامرة سرية يدبرها مع الرشيد فى محاولة لإقصائه عن شرف الصحبة . . وإنما كان ردّ الفعل على المكشوف . . وهو النقد الهادف الواصل بالمنقود إلى الاعتبار حذر العثار . .

وهكذا كانت معارك العلماء:

على الطبيعة . . ولم تكن خلف الكواليس . . فى الظلام . . ومن هنا حققت ثمراتها اليانعات نهضة علمية زاهرة . .

بقدر ما كانت المعارك الخفية مرة الثمار . . وشر الأدواء . . ما خفى واستتر.

-٩-

وإلى الشباب توجيه خاص:

أن يفسحوا من أوقاتهم لفهم لغة القرآن . . لمصلحة الدعوة ذاتها:

لقد كانت اللغة أحد المنافذ التى حال المستشرقون أن يَلجوها طعنا فى دين الله. ولن يرد كيدهم إلا من حصّن نفسه بفقه لغة القرآن. لقدكان أبو يوسف يحمل فى عقله علما غزيرا وفيرا . . لكن ذلك لم يكن يغنيه عن التبحر فى اللغة بعد أن سقط فى الامتحان.

فكيف إذا تعلق الأمر بشباب مازالوا يدرجون على طريق طويل .. بزاد من العلم قليل.

- ١٠ -

كان النقد لاذعا .. ولكنه كان فى نفس الوقت هادفا .. ومن بركته أن حفز همة أبى يوسف على علو كعبه فى العلم أن يوجه همته لدراسة النحو بعد ما تبين له قصور باعه فيه..

ولو أن أبا يوسف كان يخوض معركة الدفاع عن النفس لما أعجزته الحيلة فى مواجهة ذلك النقد بما أوتى من ذكاء وحسن استنباط . ولكن العالم لا يعنيه انتصاره فى معركة جدلية يحقق بها كسبا رخيصا .. لكن قضيته الأولى هى: انتصار الحق الذى يجب أن يظل هو الأعلى .. دائما.

- ١١ -

وما تزال الفرصة متاحة ليجدد أمراؤنا وعلماؤنا ما أبلته الأيام فى هذه المواقف النبيلة .. فما زالت. خير أمة أخرجت للناس .. ما حققت شروط هذه الخيرية. عزوفا عن الدنيا وعفة فى اللسان وتصحيحا للمسير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر. ونذكر هنا قوله ﷺ :

(إذا عظَّمت أمتى الدنيا.. نُزعت منها هيبة الإسلام. وإذا تركت الأمر بالمعروف . حرمت بركة الوحى. وإذا تسابَّت أمتى . سقطت من عين الله)[1].

وليت شعرى .. إذا سقطت الأمة من عين الله إذا تراشقت ببذئ الكلام .. فكيف بها لو أنها تحاورت بالسلاح .. فسال الدم المستباح؟!

---

(١) رواه الترمذى.

لا مجاملة فى الحق
وشاهد من السنة

- ١٢ -

ربما تقوم فى كيان الإنسان معركة بين قلبه وعقله:

قلبه الراغب فى مجاملة من يحب. . .

وعقله الذى يحسم القضية لحساب الحق . . بلا مجاملة . .

وهكذا عظماء الرجال دائما . . وفى مقدمتهم عمر رضى الله عنه.

فقد كان يحب أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه حبا جما . حبا صادرا عن رابطة الإيمان الجامعة . . إلى جانب ما يتمتع به أبو موسى من مواهب نادرة . .

ولكن . . حين رأى عمر ما يمكن أن يتعارض مع الحق - نحى العواطف جانبا: روى ابن سعد. وابن عساكر عن الزهرى عن أبى سلمة:

كان عمر رضى الله عنه إذا رأى أبا موسى قال:

ذكرنا ربنا يا أبا موسى . وفى رواية شوقنا إلى ربنا. فيقرأ عنده.

وهكذا كان تقدير عمر لأبى موسى رضى الله عنهما . .

ولكن عمر على استعداد لأن يخسر الناس جميعا . . إذا تعارض حبهم مع ولائه للحق الذى رصد عمره لرفع لوائه.

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال واللفظ للبخارى: كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال:

استأذنت على عمر ثلاثا . . فلم يؤذن لى فرجعت.

فقال: ما منعك؟ قلت استأذنت ثلاثا. فلم يؤذن لى فرجعت. وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أورده الحافظ فى الإصابة والذهبى فى السير.

«إذا استأذن أحدكم ثلاثا. فلم يؤذن له. فليرجع».

فقال (عمر):

والله لتقيمن عليه بينة .. (وفى رواية أخرى أنه هدده)

فقال أبى بن كعب:

والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم.

فقمت (أبو سعيد الخدرى) معه.

فأخبرته أن النبى ﷺ قال ذلك[1].

وعند مسلم فى كتاب الأدب:

عن عبيد بن عمير:

ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس - أبى موسى - فائذ نوا له. فدعى له. قال: ما حملك على ما صنعت فقال:

إنا كنّا نؤمر بهذا.

وفى رواية فقال:

يا أبا موسى ما ردك؟ .. كنا فى شغل

قال سمعت رسول الله ﷺ: يقول:

الاستئذان ثلاث. فإن أذن لك .. وإلا فارجع.

قال: لتقيمن على هذا بينه. أو لأفعلن.. ثم قال عمر: خفى على هذا من الرسول ﷺ.. ألهانى عنه الصفق بالأسواق. وفى رواية: أن الصحابة ضحكوا من عودة أبى موسى كالمذعور!

وبعد:

(فإن النهر يسير آلافا وآلافا من الأميال .. فلا ينقطع سيره .. ولا ينضب

(١) الجامع الصحيح - كتاب الاستئذان. باب التسليم والاستئذان ثلاث.

ماؤه . . ما دام من ورائه الينبوع يمده. . وهذا ينبوع قوتنا نحن المسلمين. . هذا هو الينبوع:

وَرَدَه أجدادنا فصدروا عنه فصاروا ملوك الأرض. . وأئمة الهدى. . وضَلَلْنا نحن طريقه . . وذهبنا نحن نفتش عنه فى باريز ولندن ونيويورك وموسكو. . فرجعنا بالذلة والضعف والهوان . . فهل نعود إلى حراء؟. . لتعود إلينا منزلتنا فى الأرض).

(لقد ملكنا الدنيا يوما . . بالسلاح الذى حملنا من حراء . . وسنبقى ملوكها ما بقى هذا السلاح فى أيدينا).

وتلك مسئولية الدولة التى يجب أن تنقلها من أمل فى الصدور إلى واقع ملموس. وستظل المسئولية الكبرى معلقة فى رقاب الأمراء والعلماء معا وعلى سواء.

العلماء: الذين لا تغيّرهم الأحوال.

والأمراء: الذين لا تزلزلهم الأهوال.

ولا شك أن طبيعة العدو المتربص بنا وطبيعة المعركة أيضا تفرض هذا التعاون على البر والتقوى. .

فالعدو المتربص لا يريدها معركة عسكرية فقط . . ولكنه يريدها بالدرجة الأولى معركة حضارية يطمس بها معالم تاريخنا المجيد. .

وإذن فلابد أن تكون المواجهة شاملة . . من لدن الأمراء والعلماء معا: ولنتأمل ما يدور حولنا:

إن الوجود اليهودى يراد فرضة بقوة السلاح . . وقوة الإعلام الموجه. . وفى آذاننا . . وملء بصرنا سحب الدخان . . ولهب النيران . . ومن وراء ذلك تُحرق البيوت الأثرية. . والمكتبات النادرة الإسلامية. . . لأنها وجود إسلامى . . وحضور عربي تشجب الوجود اليهودى . . إنهم كما قيل:

يخافون من تاريخنا . . بإحراقه

ويخافون من حاضرنا . . فيقتلون . . ويعذبون.

ولكن الفارس المسلم سيظل أبدا عل صهوة الجواد فى ساحة الجهاد . . ولن تنقبض أيدٍ بسطناها . . ولو صافحتها السيوف البواتر:

فإما إلى صَدّاحةٍ تطرب الورى - وأما إلى نواحةٍ فى المآتم]

[مسئولية المتعلم]

وأقصد بالمتعلم هنا: طلاب العلم المشتغلين بالدعوة فى محاولة تضيء بها شمعة لعلها أن تسهم فى كشف ما حجبته الغيوم من علامات الطريق: ونحن - بهذه الكلمات - لا نريد الحجر على حقك أيا المتعلم فى تغيير الواقع الماثل ليجىء طبق شرع الله تعالى. .

وإنما نريد: وصل الطاقة المذحورة لديك بشيء نافع: لا نريدك إناء يغلى . . ويتمزق . . . ولا نريد لهذا الإناء أن ينفجر . . لينهى حياتك وحياة الأبرياء من حولك. .

وإنما نحاول وصل هذه الطاقة بآلةٍ فى مصنع . . أو ساقية فى الحقل أو طائرة السماء . . لتحركها فى اتجاه الإصلاح بدل أن تذهب بددا. والوصول إلى هذه النتيجة المفيدة يستغرق وقتا ولا يتم فى يوم وليلة. . وإلا . . فمن تعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

* معالم الطريق:

فإذا أبيت إلا الانطلاق داعيا إلى الله بإذنه . . فهذا حقك . . لكن لا تنس أن فى عنقك واجبا بل واجبات مع هذا الحق وقبله.

فإن تم ذلك دخلت المعركة بأسلحتها المتاحة . . وذلك ضمان النجاح بتوفيق الله تعالى . . ومن تلك الأسلحة:

سلاح العلم:

سئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال:

(ألم تسمع قول الحق تبارك وتعالى حين بدأ به فقال **﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله**

ثم أمره بالعمل بعد ذلك فقال ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ والعلم قبل العمل تجدون فى ذلك فى كتاب الله).

ثم إنه بالعلوم .. نصعد إلى النجوم.

فاجعل رائدك العقل الباحث المنقب .. فهو خير سائس..

واجعل الحق رائدك ... فهو سيف قاطع

وفى حوارك مع رفاقك لن تستغنى عن الحلم .. فهو درع مانع .. وأعظم حارس.

واعلم أن كل شيء لو كثر رخص .. إلا العلم فإن كثرته تجعله غاليا. وقد قالوا: كل شيء قليله أخف من كثيره إلا العلم فإنه كلما كان أكثر كان أخف!

وإذا كان الجهل أشد المصائب .. فاجعل العقل أحسن المواهب..

لكن الرحلة فى طلب العلم النافع لم تتم كمالا إلا إذا انطلقت من ركائز أربع كما قال المربون:

من الحكمة: وعنها يصدر العلم . والأدب والروية.

والعقل: وعنه ينبثق الحلم والصبر والوقار.

والعفة: ومنها يكون الحياء والكرم والألفة.

والعدل: وعنه يصدر الصدق . والإحسان والمراقبة وحسن الخلق.

وبعد ذلك

لا تقل كل ما تعرفه .. ولا تصدق كل ما يقال .. ولا تفعل كل ما تقدر عليه .. ولا تنفق كل ما تكسبه..

فإذا نُصِحت نصيحة فاقبلها وإن كانت مرة .. والذى ينصحك اليوم .. يحميك من حسادك غدا .. ويقيك من أخطاء لو فعلتها لانطَلَقت ألسنتهم بالسوء .. ثم مكنتهم منك بالعناد..

فلا تكن عدوًّ نفسك .. واعلم أنه: لا ينال النعيم بالنعيم .. وإنما ينال

بالمعاناة ومن طال وقوفه فى الشمس.. طال وقوفه فى الظل .. وما ابيضت وجوه طلاب المعالى إلا بعد أن غيرت فى البيد طلبا للعلم!

[ضرورة احترام السن]:

إن البركة مع الأكابر الصالحين دائما .. وما بقى فارق السن ملحوظا .. فقد تهيأ الجو المناسب للتعليم:

قال الفضل بن موسى:

انتهيت أنا وعبد الله بن المبارك إلى قنطرة (ممر للمشاة) فقلت له: تقدم ..

فقال لى: تقدم

فحاسبته - أى حسبت عمره - فإذا أنا أكبر منه بسنتين!

فانظر كيف يتوقف العالمان على مشارف المنعطف .. يتحرج كل منهما أن يسبق صاحبه.. ثم يُصعِّد الموقف العابر ليكون قضية يُشرعان فيها الأقلام والأوراق فى محاولة لحساب عمر كل منهما فلما انتهيا تقدم الأكبر سنا.!

وربما كان على الطريق معهما شباب وشيوخ ما فهموا سر الوقفة الحكيمة.. لكنها آداب الإسلام وفهم حقيقة الإسلام التى تتسع حتى لتُدخل فى الحساب مثل هذا الموقف العارض المكرور.!..

[الحساسية المفرطة]:

وقد كانت هذه الروح سارية المفعول .. وفى أدق صورها:

يقول يعقوب بن سفيان:

بلغنى أن الحسن. وعليا. ابنى صالح. وهما من حفاظ الكوفة .. كانا توأمين وخرج الحسن من بطن أمه . قبل أخيه.

فلم يُر الحسن. وعلىّ فى مجلس إلا وعلىّ دونه.

ولم يكن يتكلم مع الحسن إذا اجتمعا فى مجلس؟.

فانظر كيف كان فارق السن لحظة واحدة.. بيد أنها كانت محسوبة .. فى

ذهن أخيه الأصغر . . والذى كان منه بمنزلة التلميذ من الأستاذ.

وفى «صفوة الصفوة» قرأت:

أن الأشعث وجريرا بن عبد الله حضرا جنازة.

فقدم الأشعث جريرا. ثم التفت إلى الناس قائلا:

إنى ارتددت . وإنه لم يرتد.

*** أسوة فى تقدير العلماء:**

قال عبد الله بن الإمام أحمد: قلت لأبى:

أى رجل كان الشافعى . فإنى أسمعك تكثر الدعاء له فقال:

يا بنى: كان الشافعى «رحمهُ الله» كالشمس للدنيا. وكالعافية للناس.

فانظر . . هل لهذين من خَلَف أو عوض؟

وروى صالح بن الإمام أحمد قال:

لقينى يحيى بن معين فقال: أما يستحى أبوك مما فعل؟

فقلت: وما يفعل قال:

رأيته مع الشافعى والشافعى راكب. وهو راجل آخذ بزمام دابته . فقلت لأبي ذلك فقال: إن لقيته. فقل. يقول لك أبى إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر[1].

*** شباب تسبق عقولهم أعمارهم:**

وليس معنى ذلك أن يقف السن حاجزًا عن التفوق والانطلاق . .

فقد يكون لدى بعض التلاميذ نُبُوغ نَزَّاع إلى التقدم.

وقد يحمله على جناحيه ليتقدم أستاذه . .

وإذن . . فلا بأس أن تُفْسح له الطريق . . والاستاذ هنا كالوالد:

(١) الانتقاء: ٧٣.

يسعده أن يسبقه ولده فى مضمار الحياة..

أجل لا بأس أن يتقدم الأعلم ولو كان أصغر سنا..

يقول الحسين بن منصور: كنت مع يحيى النيْسابورى. وإسحاق بن راهويه يوما نعود مريضا فلما حاذ ينا الباب تأخر إسحاق فقال يحيى لإسحاق: تقدم أنت.. قال يا أبا زكريا: أنت أكبر منى فقال يحيى نعم وأنت أعلم منى. فتقدم إسحاق.

ونذكر هنا قول الشاعر:

رأيت الفهم لم يكن انتهابا   ولم يُقسَّم على مر السنين

ولو أن السنين تقاسمته   حوى الآباء أنصبة البنين

[البخارى .. القدوة الحسنة]

لقد أخذ البخارى عن أكثر من ألف رجل:

فيهم من هو أكبر منه .. ومن هو مثله .. ومن كان أصغر منه. فلم يكن للسن عنده مدخل...

وحتى يحتفظ لنفسه بروافد من المعرفة: غزيرة .. مستمرة .. متنوعة.

وكان يقول:

لا يكون المحدث محدثا حتى يأخذ عمن فوقه .. ومن هو مثله.. أو أصغر منه.

وربما استيقظ فى الليل عشرين مرة .. ولما أشفق عليه رفيقه الذى عاتبه:

لماذا لا توقظنى؟ قال له أنت شاب. وأخاف أن أفسد نومك!

ومن الغريب أن تصادف شابا اليوم: يأخذ معلوماته من مصدر واحد.. فإذا رآك تنوع مصادر المعرفة .. لا يريحك بسكوته .. بل يصب عليك نقده اللاذع لأنك نوعت مصادر سلاحك.؟

* شاهد من القرآن:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨: ٧٩].

فى سبب نزول الآيتين الكريمتين .. يقرر المفسرون:

أن غنما رعت زرعا لآخر ليلا. فقال داود عليه السلام: لصاحب الزرع رقاب الغنم.

وقال سليمان: بل ينتفع صاحب الزرع بدَرها ونسلها وصوفها إلى أن يعود الحرث كما كان - بيَد صاحب الغنم - الذى يسترد غنمه حينئذ.

ورجع داود لرأى ولده.

تمهيد:

قيل لسفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ فقال العالم: .. فلما سئل عن سر ذلك قال: لأن الخطأ منه أقبح. ولقد وعى أسلافنا هذه الحقيقة فوقفوا حياتهم على طلب العلم: من المهد إلى اللحد. وماتوا والأقلام فى أيديهم.

ومنهم ابن المبارك. الذى قيل له: لم لا تستريح وقد بلغت من الكبر عتيا؟ فقال:

لعل الكلمة التى أنجو بها لم أقلها بعد.

ولكن العلم الحفيل .. لن يغنى عن القلب النبيل القلب العامر بالإيمان. الذى صار به عَلَم هدى .. يرى الحق حقا .. والباطل باطلا .. ليصبح بالبصيرة الكاشفة قاطعا .. كالسيف.

نافذا .. كالسهم.

* القمة ... تسع الجميع

وإذا كان الأمر كذلك . . فلا دخل للسن هنا فى الصعود إلى المعالى ما دام طالب العلم أهلا لهذا الصعود: برغبته الملحة فى الصعود إلى القمة العالية . . وقلبه العامر بالإيمان . .

هذا الإيمان الذى: يحرك الجامد . . ويبعث الهامد. لينطلق المؤمن إلى المحامد.

* سعادة الوالد بحكمة ولده

ولقد كان داود عليه السلام أسعد الناس بظهور الحق على لسان ولده وإن شئت قلت بظهور ثمار تربيته . . حين جعل منه شخصية لها ذاتيتها وإيجابيتها . . بالمشاركة العملية فى أحداث الوطن . . وفى بواكير حياته الأولى . . حتى إذا مات الوالد . . مات مستريحا . . من حيث خلف من بعد ولدا يمتد به عمره . . ويخلد أثره . .

[الشباب يعيشون مشكلات الأمة]

ونقول بلغة العصر: لقد فهم الشباب القضية . . ونجحوا فى وضع الحل المناسب لمشكلة ملحة.

ولكن هذا لا يخفى حقيقة أن الشباب لم بعلم «عنده» كما قال «قارون» مما قد يحرك فيه مشاعر الغرور . . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي تكفل بإفهامه: ﴿.. **ففهمناها سليمان**﴾.

(ولكل درجات)

والسبق البعيد الذى أحرزه الشباب هنا: محكوم بأدب الإسلام الذى ينوه بعمل العاملين . . الذين ينبغى عليهم أن يتصرفوا التصريف النبيل: شكرا لله تعالى . . أن مَنَّ عليهم بالتوفيق . . على أن تظل للوالد قيمته العليا . . ومركزه المرموق . .

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿.. وكلا آتينا حكما وعلما .. وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين...﴾ الآيات.

أما الذين يَلْوُون الرأس .. إعراضا .. ثم يطلقون اللسان اعتراضا .. فى محاولة للتشبث بالقمة .. فليسوا فى العلم فى شىء.

والموقف الأمثل هنا:

تعاون الأجيال على البر والتقوى. لتطير الأمة إلى مرضاة الله تعالى بجناحين .. وتسعى على قدمين.

* مثل من تاريخ السلف:

خرج ميمون بن مهران التابعى الجليل: يقودُه ولده عمرو قاصدا الحسن البصرى:

يقول ولده: فخرج الحسن البصرى فاعتنق أبى. ثم دخلا.

فقال أبى للحسن: يا أبا سعيد: قد آنست من قلبى غفلة. فجئتك لتعظنى لعل قلبى يلين. فما زاد الحسن على أن تلا هذه الآيات:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

فما هو إلا أن سمعها ميمون فسقط مغشيا عليه.

ثم قال ولده:

فأخذ يفحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة.

فلما أفاق قلت له وأنا آخذ بيده خارجا من بيت الحسن:

يا أبتاه ... هذا الحسن البصرى؟!!

قد كنت أحسب أنه أكبر من هذا!!

فقال:

(اسكت يا بنى لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لأبقى لها فيه كلوما)!

إنه درس فى الأخلاق: لقد كان ميمون بن مهران كثير الحديث عن زميله فى طلب العلم:

الحسن البصرى. . .

ولم يكن حديث التحاسد والتغاير . . كما قديحدث اليوم. . وإنما هو حديث المنصف . . . الذى لا يريد أن يتربع على القمة وحده. . . لكنه يفسح فى المجلس الذى يتسع له ولغيره من العلماء الأفذاذ. . وقد كان ذلك درسا أخلاقيا لولده «عمرو» قبل أن يكون درسا فى العلم.

لكن الولد الناشىء كان قد تصور الحسن رضى الله عنه . . على نحو ينسجم مع عمره الباكر . . لقد تصوره خطيبا مصعقا . . يهز أعواد المنابر ويرسل الكلام كالرعد . . والألفاظ كالسهام . . كأنه منذر جيش . . فلما رآه . . لم يسمعه يتكلم . . بل إنه تلا على والده الآية. . ثم تركه معها. . ليفهم بقلبه ما وراء السطور . . بينما الشاب الفائر. . يتطلع إلى خطبة عصماء . . فى هالة من الرعد والبرق الوعيد. فلما لم يسمع. . أنكر ما سمعه عن الحسن. . ثم تلاشت الصورة القديمة!!

أمام قسوة الواقع!

* بيت القصد:

وموقف هذا الفتى يعبر عن مشكلة من مشكلات الدعوة هى: أن بعض الشباب يتخيل القمة العالية. . .

ثم يرغب فى الصعود إليها. . ومن وراء الرغبة إخلاص عميق. . ولكنه فى نفس الوقت الذى ينطلق فيه من قاعدة الإخلاص . لا يستصحب معه أسلحة المعركة. . إنه يواجه القرآن الكريم . . ببصره . . بينما بصيرته: لؤلؤة لم ينكسر عنها المحار من بعد!

وهى لا تنكسر إلا بالمعاناة . . والمعاناة المستمرة تحت إشراف الخبرة . . والسن. فإن فعل ما يوعظ به . . فلا علينا إذَا استَبق . . ثم سَبَق. فإن سبقه حينئذ بعض أمانينا . . إن لم يكن كل أمانينا.

* سلاح الحب:

إن الدعوة عبادة.. ولن تكون عابدا حتى تحب من تعبده سبحانه وتعالى.. ولا يكفى ذلك.. بل لابد أن يتسع قلبك ليحب من يحب الله تعالى.. ولا تنتهى مسئوليتك عند هذا الحد.. فلابد أن تُحَبِّب الخلق فى الله تعالى وذلك بذكرك الله تعالى موصوفا بصفات الجمال.. تعزز ذلك بحسن معاملاتك مع الآخرين فى صحبة قلب ودود.. يتفتح ليستقبل حتى الخطائين من البشر..

إن هناك ناسا غارقين فى المعاصى.. لكنك تسمع أحدهم يقول وهو يتمرغ فى تراب المعصية مغلوبا على أمره:

(اللهم إنى عصيتك لكنى أحب من أطاعك)

أى أنه يحبك أيها الفتى المطيع.. فكيف لا تبادله حبا بحب. كيف لا تفسح له الطريق.. ليعود فيأخذ مكانه إلى جانبك فى طابور الطائعين. إنك بالعقل.. تبحث عن الشىء الحق.. وبالقلب.. تبحث عن الشئ الجميل..

وما أجمل أن يكون السلوك رضيا... رقيقا.. يدعو إلى الله على بصيرة..

إن الحق.. كما هو محتاج إلى من يجهر به مثلك.. لهو أشد احتياجا إلى من يحمله.. ثم يبلغ به قرار القلوب.. وتلك وظيفة القلب الرقيق.. قبل أن تكون وظيفة العقل الدقيق. القلب الوسيع الذى يسع الناس جميعا.. حتى الكافرين؟.

* من هدى القرآن:

واقرأ معى قوله تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الروم: ٢: ٥].

لقد تأثر المسلمون لمَّا غلبت الروم .. تعاطفا مع أهل الكتاب إزاء عبدة النار ومع ما تجرعه المسلمون من الروم. إلا أنهم فرحوا بانتصار الروم من بعد .. إنه القلب الذى يصدر فى حبه وبغضه: لا عن الهوى .. وإنما يدور مع مطالب الإيمان...

وهو من السعة بحيث يتعاطف حتى مع أعدائه .. ولكنه على أشد ما يكون الغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى.

*** درس من القرآن:**

يقول الحق سبحانه:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

تأمر الآية الكريمة الداعية أن يأخذ موقف الدفاع:

الدفاع عن الحق .. وعن الفضيلة .. ولكن: عليه إذا أراد أن يخوض المعركة بنجاح أن يعرف.

أ ـ طبيعة المعركة.

ب ـ ثم يتحسس قدرته على تحمل مسئولياتها...

جـ ـ وما هى وسيلته التى يستعين بها

د ـ ومتى ينتهى دوره المنوط به؟

*** طبيعة المعركة:**

أما عن طبيعة المعركة فتشير إليها الآية الكريمة بأن معركة الداعية إنما هى مع السيئة .. لا مع من أساء. بمعنى: أن المخطئ أخوك فى الإسلام.. لكن نقطة الخلاف بينك وبينه هى: العمل السيء نفسه .. فإذا تركه .. فقد بقى كما هو... أخا لك فى الدين.

ولقد علمنا القرآن الكريم هذه الحقيقة بشأن الطائفتين من المؤمنين يقتتلان فما زالا مع الدم المسفوح إخوة وما زالوا كذلك مؤمنين. وتأكيد هذه الأخُوّة .. إنما هو حرص من الإسلام. على أن تظل الأخوة الجامعة شجرة ظليلة يفىء إلى ظلها

المتقاتلون.. ليجمعوا الشمل الشتيت من جديد.

إمكانات الداعية:

ثم هل أنت قادر فعلا على الدفاع .. أم أنت من الذين يظلمون أنفسهم بتعريضها لبلاء لا تطيقه؟

فإذا كنت من القادرين .. فأعلم أنه من مظاهر القدرة أن تدفع ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ويعنى ذلك أن تجيد صناعة التصويب الدقيق لتصب الهدف.. فإذا رميت .. أصبت السيئة ولم تجرح أخاك المسيء؟! ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

لاحظ هنا أن الله تعالى يقول:

﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولم يقل بالتى هى: أعظم وأفخم.. أو أقوم..

ومن الذى يقدر على الأعظم - أو الأفخم؟

إنما كل إنسان يقدر على أن يدفع بالتى هى أحسن:

والحسن وزينة جمال .. وربما كان ميسورا . أكثر من الكمال.. وإذن .. فخذ طريقك إلى العاصى من زاوية الجمال .. أولًا.

أعنى: واجه الجمال بالقبح..

وضح له .. ما فى العمل الجميل من جاذبية تزرى بالعمل الرذيل .. وكل إنسان قادر على اكتشاف الفرق بين الجميل والقبيح بالعين المجردة وللوهلة الأولى!

أما منطق الكمال .. وإشعار المدعو بأن القضية قضية الحلال والحرام .. فربما حمله ذلك على النفور من داعية يريد إحراجه .. بل وإخراجه من ساحة الغفران. أحيانا على الأقل!

وتلاحظ أيضا:

أنه تعالى قدم الوسيلة ﴿﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قدمها على الغرض وهو ﴿السَّيِّئَةَ﴾ فلا يكفى أن تهجم على السيئة فى حركة انتحارية... لا تَذَرُ من شىء إلا جعلته كالرميم...

لأن ذلك الإجراء . . سيقضى على سيئة . . تخلّف من ورائها سيئات . . تماما كالفلاح الذى لا يجتث الحشائش الضارة من جذورها . . وإنما يضر بها بالفأس . . تاركا جذعها ليفاجئه فى اليوم التالى بما لم يكن له فى حساب.

*** الداعية ليس وحده:**

وعلى الداعية أن يكون كهذا الفلاح الحكيم:

يبذر الحب ويطلب الحصاد من الرب. . . عليه أن يقوم بدوره - ثم يترك الباقى على الله تعالى. وهو ما يشير إليه ختام الآية الكريمة:

﴿نحن أعلم بما يصفون﴾

فالله تعالى يهدد المخالفين عن أمره بأنه سيجازيهم يوما . . وأنه سيُرى الدعاة فيهم عجائب قدرته. . فليفهم الداعية الشاب ذلك الدرس . . حتى لا يعتمد على قواه المحدودة. تاركا حسم القضة للقادر عليه سبحانه وتعالى.

*** التفاؤل واستشراف المستقبل**

إذا اتسع قلب الداعية . . وتخلص من هواه . . ثم فتح كل النوافذ للهواء النقى . . . فسوف يرى الفجر الصادق من خلال الغيوم الراكضة ويتحسس كل بادرة ولو ضئيلة. ليلتقط الخيط. . ويُمنّى النفس بتوبة نصوح سوف يعلنها أعتى المعاندين:

[المستحيل ... الذى صار ممكنا]

لما عزم عامر بن ربيعة على الهجرة إلى الحبشة ضرب لزوجته موعدا ومكانا يلتقيان فيه. . . فلما جاءته متأخرة - سألها: ما الذى أبطأ بها فقالت التقيت برجل من أهل الكفر: من هو؟ قالت: إنه عمر! فقال لها:

وماذا قال لك عمر؟ قالت:

قال لى: إلى أين يا أم عبد الله؟ فقلت:

انكم آذيتمونا . فنريد أن نفر بديننا.

فقال عمر: صحبكم الله!

فقال عامر لزوجته:

أتظنين أن عمر يسلم؟ قالت:

أنى أرجو إسلامه لمقالته هذه

فقال عامر: لو أسلم حمار الخطاب أسلم عمر.

لقد كانت كل الدلائل تشير إلى جمود عمر على ضلاله القديم. ولم تكن هناك بارقة أمل فى إسلامه .. لكن الزوجة المؤمنة أحست من كلمة عمر لها ـ بوجيب قلبه يهفو إلى الحق . ولو من بعيد..

ولقد حدث ذلك بالفعل وآمن عمر.

(من هدى السنة)

ولقد غضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا من تسرع حبيبه أسامة ابن زيد وقتله من نطق بالشهادتين. وكان الظن بأسامة أن يتلقى هذه المبادرة الطيبة بقلب يحسن الظن بأخيه الإنسان . . فلعل هذه الشهادة أن تكون طريقه إلى الإيمان:

أخرج الإمام أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى . عن أسامة بن زيد قال: (بعثنا رسول الله ﷺ فصبحنا الحرقات من جهينة. فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا الله. فطعنته. فوقع فى نفسى من ذلك.

فذكرته للنبى ﷺ . فقال رسول الله ﷺ .

(أقال: لا إله إلا الله. وقتلته)؟!!

قلت: يا رسول الله: إنما قالها خوفا من السلاح. قال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة» فما زال يكررها. حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)[1].

ولعله فهم رضى الله عنه متأولا قوله تعالى ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر ٨٥].

واعتبرها نافية للنفع فى الدنيا والآخرة.. والظاهر من الآية أنها خاصة بالآخرة)[2]. ولاحظ بقية من النور فى قلب أسامة رضى الله عنه.. فلم يكن هو بالذى يقتل تشفيا .. وتصفية حساب.. وإنما هو مجاهد فى سبيل الله تعالى. .وإذن فهو محكوم بشريعته سبحانه وتعالى .. ومن ثم نسمعه يقول: (. . .فطعنته .. فوقع فى نفسى من ذلك) ثم حمل همه وذهب إليه ﷺ يستفتيه .. استجابة لقلبه الذى لم يركن تماما إلا سلامة موقفه.

---

(١) البخارى /٣٩٨.

(٢) راجع أدب الاختلاف للدكتور طه العلوانى.

الإحاطة بالوضع
النفسى للمدعو

*** تمهـــيد:**

تحتاج الدعوة إلى رجال على مستواها: فقها لأسرارها. وإدراكا لمقاصدها والتزاما بالحكمة فى نشرها.

وإلا. فإن قصور الإمكانات مؤدّ بالداعية إلى الفشل. ثم تكون النكسة .. عندما يختلف الأخيار .. بينما الأشرار يتحدون.

لابد إذن أن يكون الداعية كفئا لوظيفة الدعوة .. وهذا يعنى أن يكون سلطة شرعية يثق بها المدعو . الذي يحس فى نفس الوقت بحاجته إلى تلك الدعوة .. وإذا اجتمعت الحسنيان .. كان ذلك ضمانا للنجاح...

*** من هدي القرآن :**

يقول الحق سبحانه:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩].

فالتوحيد هو الغاية الكبرى...

والعلم هو الوسيلة الحية..

ثم ذكر الله تعالى واستغفاره هو غذاء المؤمن اليومى . ليظل متربعا على القمة ما دام بالذكر مستحضرا عظمة الله تعالى.

وإذا كان الحق تعالى يعلم المنقلب والمثوى .. وهو مجازٍ كلا بما عمل .. و!! كان الداعية على هذا المستوى: ذكرا وفكرا .. فسوف يتجاوز العقبات .. ناسيا حظوظ نفسه جاعلا همهُ الأول: مرضاة ربه سبحانه وتعالى.

أما الفارغون من العلم .. العاطلون من حلية الحكمة .. فإنهم يبذلون

طاقاتهم فى غير مدان. يبنون من الحبة .. قبة .. ومن الحصاة قصرا .. ومن القطرة بحرا .. فإذا المعركة جعجعة ولا ترى طحنا!!

* واجب الداعية:

إذا كان القائد العسكرى يدرس طبيعة الميدان قبل أن يخوض المعركة .. وقبل ذلك يحاول معرفة طبيعة العدو نفسه ليخاطبه باللغة التى يفهمها - إذا كان القائد العسكرى يفعل ذلك .. فأولى بالداعية أن يعرف طبيعة المدعو .. ووضعه النفسى .. ليخاطبه بالأسلوب الذى يثير فيه الرغبة لاعتناق الحق: وهناك من يعرف الحق .. ويرغب فيه ولكن هواه يجرفه بعيدا .. وفى الناس من يعرف الحق أشد من معرفته لولده .. ولكنه يرفضه عنادا .. أو حسدا ..

وفيهم الجاهل الذى لو عرف الحق لكان من جنده المخلصين .. وهذا القسم هو الأكثر:

﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾.

وطبعى أن تختلف لغة التخاطب مع كل فريق:

بين الحكمة .. والموعظة الحسنة .. والجدال بالتى هى أحسن. وتأمل موقف عمر رضى الله عنه .. عندما استمع إلى رجال يرفعون أصواتهم فى مسجد رسول الله ﷺ:

لقد لفت نظرهم أولا إلى حرمة المسجد .. وخطأ ما يصنعون . ثم أراد أن يستكشف وضعهم ليعلم هل يدركون الحكم أم لا ... فسألهم: ممن أنتم؟ فلما عرف أنهم من الطائف لم يعاقبهم قائلا: لو كنتم من المدينة لأوجعتكم.

ومن ثم أمسك.. فلم يعاقب. لأنهم غرباء جاهلون بأدب المسجد الشريف.

وعندما تحمس رجل .. وذهب لقطع شجرة يتبرك بها الجاهلون .. وقبل أن يصل إلى الشجرة عرج على مسجد القرية أولا.. فجاءه رجل وجلس بين يديه **قائلا:** يا رسول الله!

فقال له الداعية: هذا شرك!!

ثم قامت معركة تبادل فيهما الطرفان الاتهامات ثم انتهت بسقوط هيبة الداعية. ثم فشله فى إنفاذ مهمته.

ثم جاء داعية آخر . . وكان من تدبير الله تعالى أن يجلس فى المسجد ليجيئ نفسى الرجل ويجلس بين يديه قائلا: (يا رسول الله).

وهنا تبدو حكمة الداعية الذى قال له:

يظهر أنك تحب رسول الله ﷺ - قال نعم قال وأنا مثلك أحبه . . وأحب سنته . . وأسألك: قول رسول الله أحسن أم قولى وقولك. وأيهما أولى بالاتباع فأجاب الرجل: طبعا قول رسول الله ﷺ أحسن . . وهو أولى بالاتباع. وعندئذ جاءت لحظة المخاض . . وحدث التغيير الكبير . . .

وعندما قال الواعظ:

لقد كان رسول الله ﷺ يقول عندما يجلس يا الله!

قام الرجل . وقبل رأسه . . وانتهى الموقف . . وبقى الدرس المفيد المؤكد للناس أن الحماس وحده لا يكفى! لابد من الحكمة الهادية البانية. . . الضابطة للحماس الهادر . . ليدخر لمجالاته الحقيقية . . قبل أن يذهب . . ثم لا يعود[1].

*****

من التطبيقات العلمية

- ١ -

هذه بعض المواقف العملية نذكرها . . ثم نعلق عليها تعليقا نستهدف به لفت نظر الدعاة إلى بعض العلل التى ما زالت تعبر القرون . . سارية المفعول فى واقعنا المعاصر لعل فيها تبصرة وذكرى:

*** خذ هذا المثل:**

قال سحنون: (إذا تردد العالم على الحاكم ثلاث مرات فى غير حاجة. فلا تجوز شهادته). وقد غفل المتسرعون عن القيد هنا وهو - فى غير حاجة - وحكموا

(١) استمعت إلى هذه القصة من الشيخ عطية محمد سالم.

برد شهادة العالم الذى يتردد على ديوان الحاكم . . مع أن قيد الحاجة مهم . . . وهم لم يلتفتوا إليه. ويعنى ذلك: ما يترتب على القراءة المتعجلة من أحكام خاطئة.

- ٢ -

حضر مجلس الشيخ «بدر الدين» شاب حليق الذقن. وكان الشيخ مطرقا. فسأله أحد طلابه قائلا: سيدى.

ما حكم الشبان الذين يتشبهون بالنساء. ويتزينون بزي الكفار.

ورفع الشيخ بصره. فعرف سر السؤال. ثم نظر إلى الشاب الحليق الغارق فى عرقه. أدناه إليه. وأكرمه. ثم قال للسائل مؤنبا:

هذا مما يتبارك به!!

وكانت وجهة نظر الشيخ مرتكزة على أن هذا الشاب . . لما ساقته رغبته إلى مجلس العلم . . فقد دل بذلك على وجود بذرة الخير فى قلبه فلنتعهدها . . ولا نئدها!

*** عندما يفلت الصيد:**

إن هذا القادم إلى مجلس العلم . . قد يكون ذلك الأعرابي الذى عاش وسط الأغنام . . وفى حَرِّ الصحراء. ولو أنه سار إلى ساحل رطب . . منعش . . فإن الدقائق الأولى على ساحل البحر أفعل فى تنشيط خلاياه. . وأكثر بركة من السنين التى قضاها عبر الصحراء القاسية.

فلماذا لا نكون ذلك البحر . . الذى يستقبل بنسيمه ذلك الحران وأمثاله . . لينقل خطاه معنا . . على ذات الطريق. . ثم . . لماذا نسقط من الحساب ما قد يتمتع به ذلك الشاب الحليق من مزايا قد تخدم الدعوة؟ لماذا لا ننظر إليه بعين الرضا؟

قال رجل لابن أدهم. وكان رفيقَه فى السفر:

---

(١) فصول إسلامية . بتصرف.

ما هى عيوبى؟ فقال له ابن أدهم: لم أر منك عيبا.. لأنى أنظر إليك بعين الوداد. فسل غيرى عن عيوبك:

وكما قال الشيخ على الطنطاوى:

ما زال بعضنا يغفل عن أعداء اليوم من البهائيين مثلا .. ثم يحارب الأموات بسلاح السيف والرمح .. ويغفل عن الأحياء الذين يحاربوننا بصواريخ الشبهات والشهوات. ونقول. وعندما يقررون قتال الأحياء .. يؤثرون إخوانهم فى الدين .. مبددين طاقة المحطة الكهربية .. وبدل أن تدير المصانع .. وتحرك الآلات .. يستخدمونها فى تحريك اللُّعب!!.

*** شباب عقلاء :**

إذا كان تغيير المنكر واجبا .. فإن طريقة تغييره تأخذ حكم الوجوب أيضا وقد حفل التاريخ الإسلامى بمواقف شبابية رائدة..فهمت الحكم ثم اتخذت من الحكمة سبيلا إلى تطبيقه..

وقد تحاشن أحيانا .. لكنها فى النهاية تعتصم بالبرهان.

سمع الصحابى غُرفَة بن الحارث الكندى رجلا نصْرانيا يشتم النبى ﷺ .. بمصر وكان غرفة يسكنها فضرب النصرانى فوق أنفه فرفع إلى عمرو بن العاص فقال له: إنا قد أعطيناهم العهد فقال غرفة:

معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبى ﷺ وإنما أعطيناهم العهد على:

أ ـ أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدالهم.

ب ـ وألا نحملهم ما لا يطيقون.

جـ ـ وإن أرادهم عدو قاتلنا دونهم.

د ـ على أن نخلى بينهم وبين أحكامهم إلا أن يأتوننا راضين . بأحكامنا فنحكم بينهم.

هـ ـ وإن غيبوا عنا لم نتعرض لهم.

فقال له عمرو/ صدقت[1].

إن القضية هنا مهمة للغاية:

النصرانى يعيش فى بلده موفور الكرامة..

وعندما أخطأ .. نال جزاءه .. لكن القضية رفعت إلى الحاكم الذى دافع عن النصرانى ضد الفتى المسلم. والذى كان يحمل معه مستنداته.

وانتهى الأمر بإحقاق الحق وإبطال الباطل. على نحو قد يفتح قلوبا غلفا. لتعيد النظر فى موقعها من الإسلام.

ونعود إلى صاحب السؤال المحرج فى حضرة الشيخ لنقول له:

كيف تسأل شيخك عن مسألة حكمت أنت فيها سلفا!

لقد وصمت أخاك بنقيصتين:

التشبه بالنساء ...

والتشبه بالكفار ...

فهل تحتاج القضية إلى سؤال

ثم .. كيف يستمع هذا الشاب إلى هذا التأديب .. أو هذا التأنيب .. وهو فى خضم عرقه لا يكاد يري .. ولا يكاد يسمع ...

إن الجواب لن يصل إلى مسامع شاب سددت بقسوتك منافذ الإدراك فيه ... ومن ثم فلن تجد الكلمة طريقا تسلكه .. لتصل إليه ..

من توجيهات النبوة

قال غُضَيف بن الحارث[2]:

«كنت صبيا أرمى نخل الأنصار. فأتوا بى رسول الله ﷺ:

فمسح رأسى. وقال: كل ما يسقط. ولا ترم نخلهم»

(١) أسد الغابة ط الشعب/ ج٦ / ٢٣٨.

(٢) أسد الغابة والشعب ج ٦/ ٢٠.

إن المجتمع هنا صاح ... يمسك بالعاصى .. ثم يقدمه إلى الحاكم .. فكان الحاكم حكيما فى موقفه.:

لقد رأى الصبى يرجف فؤاده من هول الموقف...

والدرس لن يفيد فى مثل هذه اللحظة التى شوش الخوف فيها على مدارك الصبى وكان لابد من لمسة يعود إليه رشده ليعى النصيحة .. وقد تم ذلك عن طريق مسح رأسه تلطفا وتوددا.

ثم وضح له فى كلمة واحدة الفرق بين الحرام والحلال:

كل ما يسقط . ولا ترم نخلهم. وسوف تصادف الموعظة قلبا خاليا .. وعندئذ فسوف تتمكن .. ولن يعود الصبى إلى مثل ما فعل.. بل لن يعود كل من شهد الموقف ... تأثرا بإرشاده ﷺ.

إن علينا أن نقول كلمة طيبة .. ثم نمضى .. ولسوف تكون لها آثارها المؤكدة وإن كانت بطيئة الحدوث.

إن حامل العنبر .. ولو كان قليلا .. يبيعه بمال كثير وأنت على حق .. ولا يكفى أنك على الحق .. ولابد أن تسلك سبيله.. وإلا .. فالأمانى وحدها لا تفيد.. والأمر على يقول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

* ثمن النجاح:

إن النجاح فى تحقيق أهداف الدعوة لابد له من ثَمَن هو: التحمل .. ومداراة الناس .. انتظارًا للحظة الحاسمة التى تؤتى فيها الدعوة أكلها.. ولقد تحمل سلفنا الصالح المشاق .. وطوعوا إراداتهم لتكون فى اتجاه الحق.. ناسين أشخاصهم .. ذاكرين فقط ما يتصل بالدعوة وما ييسر سبيلها. ولنأخذ «عيينة بن حصن الفزارى» مثلا لهذا الامتحان العسير على طريق الدعوة .وما كان منه من غشم. غُفِر له تألفا لقلبه: كان ممن ارتد عنه الإسلام وتبع طليحة الأسدى . وقاتل معه ولما

---

(١) راجع أسد الغابة ط الشعب ج ٢٦/ ٣٣١.

حُمِل أسيرا إلى أبى بكر رضى الله عنه كان صبيان المدينة يقولون: يا عدو الله: أكفرت بعد إيمانك؟ فيقول ما آمنت بالله طرفة عين. ولكنه أسلم أخيرا. فأطلقه أبو بكر.

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه قد تزوج ابنته . فدخل عليه يوما . فأغلظ له فقال عثمان: لو كان عمر حيا ما أقدمت عليه بهذا. فقال: إن عمر أعطانا فأغنانا . وأخشانا . فأتقانا. ومن غشمه أنه قال يوما لعبد الله بن مسعود: أنا ابن الأشياخ الشم. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وحتى عمر رضى الله عنه لم يسلم من لسانه.

قال يوما لابن أخيه «الحر بن قيس» وكان رجلا صالحا من أهل القرآن وله منزلة من عمر قال: ألا تدخلنى على هذا الرجل؟ (قال: إنى أخاف الله أن نتكلم بكلام لا ينبغى . فقال: لا أفعل.

فأدخله على عمر. فقال: يا ابن الخطاب: والله ما تَقسم بالعدل . ولا تعطى الجزل. فغضب عمر غضبا شديدا. حتى هم أن يوقع به فقال ابن أخيه: يا أمير المؤمنين. إن الله يقول فى كتابه العزيز:

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا لمن الجاهلين فخلى عنه وكان عمر وقافا عند كتاب الله تعالى:

بل لقد بلغت بذاءته حدا حمله على مخاشنة الرسول ﷺ فقد دخل على رسول الله ﷺ من غير إذن . فقال له: أين الإذن؟ فقال: ما استأذنت على أحد من مضر!!

وهكذا اتسع قلب الرسول ﷺ .. فلم ينكل بعُيينة .. وسار الصحابة على دربه .. على سنن العفو وتحمل الثقلاء الجفاة .. لعلهم أن يعودوا إلى الحق يوما.

ونحن مطالبون بأن نأخذ نصيبنا من هذا الصبر الجميل.

[من آيات الله فى الكون]

إن الطبيعة من حولنا تعلمنا كيف نستخرج من صاحب الخلق السىء بعض الفضائل المطمورة فى الأعماق .. كيف نستثمر بالعفو بعض المواقف الصعبة عائدين بالمخطئ ليكون معنا على الحق.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٢١].

ومعنى ذلك أن الطبيعة بإذن الله تعالى تخرج النشا .. من القذى. ومن الطين .. تنبت الرياحين.

فليُسعد النطق...

إن لم يسعد الحال.

لقد حفل تاريخ الشباب بنماذج طيبة .. ربما لم يكن لديهم ما يبذلونه .. فكان المنطق الحكيم زكاة يؤدونها .. ففرضوا احترامهم على الحاكم

١ـ سأل هشام بن عبد الملك فتى عن اسمه قائلا:

ـ كم تَعُدّ يا فتى؟

ـ من واحد إلى ألف. فأكثر.

ـ لم أردْ هذا .. وإنما أ ريد: كم لك من السنين؟

ـ السنون كلها لله عز وجل

ـ أقصد: ما سنك؟

ـ سنى من عظم

ـ لم أقصد هذا .. وإنما ابن كم أنت؟

- ابن اثنين: أم وأب!

- لقد حيرتنى: فماذا أقول لأعرف عمرك؟

- قل لى: كم مضى من عمرك؟

وتحدث واحد ممن حضر مجلس هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيت كاليوم. ولا سمعت كأربع كلمات . تكلم بها رجل عند هشام دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين: احفظ عنى أربع كلمات.. فيهن صلاح الأمور. فقال هشام: وما هن؟ قال:

لا تعظنا عظة لا تثق من إنجازها.

ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا .. إذا كان المنحدر وعرا.

واعلم أن للأمور جزاء .. فاتق العواقب.

وإن للأمور بغتات .. فكن على حذر.

وتأمل كيف أصغى الخليفة إلى الناصح .. ولم ينهه .. ولم ينكر عليه حقهُ فى النقد.. وقد صدر الخليفة فى ضبط النفس عن شعور بمصلحته هو: فالحاكم العاقل بفتح صدره للنقد البناء.. لأن الناصح يحميه بالنقد من أعدائه المتربصين به، والمتصيدين لأخطائه. أى أنه يُهدى إليه عيوبه ليصلحها .. قبل أن تكون سلاحا فى يد الشامتين والساخرين.. ومن هنا سماها ابن الخطاب هدية .. لهذا المعنى. وهكذا وقف الخليفة من الفتى موقف التلميذ الذى فرض عليه احترامه. وبلا تجريح.. ولو ضاقت المسافة هكذا بين الحاكم والمحكوم.. لسعدت أمتنا وأسعدت.. فيالها من فرصة ذهبية تلك التى يلتقى فيها الحاكم بالمحكوم فى حوار يستهدف الحق .. ولا تجريح الخلق.. وياله من وقت ضائع ندخره للعمل المنتج .. يوم أن تتسع منا الصدور .. وتخف فينا حدة النقد .. لتعطى الطرف الآخر فرصة التفكير والمراجعة.

كلما تذكرت (عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة) قلت: نعم .. إن غضبة مضرية واحدة من قبل الحاكم يحقق الله تعالى بها خيرا كثيرا.. فحسم قضية

المالك والمستأجر . . وقضية شركات الاستثمار . . حسمها بالعدل سوف يحيى الله بها ملا يين القلوب . . وفى لحظة واحدة. . .هى أجدى على الأمة من عبادة تستغرق نصف قرن من الزمان لا تثمر فى المجتمع فاكهة . . ولا تقدم لبنًا ولا دقيقا!!

إننا نبحث عن السعادة هنا وهناك:

فى السوق .. فى الملعب .. على شاطئ النهر ثم لا نجدها هناك: ولكنها فى فضيلة الحكمة:

فلا تجزع إذا فاتك الذهب .. لأن الحكمة تمنحك السلامة والراحة والدعة.

والذهب يمنع عنك الراحة .. إن رحلة السعادة تبدأ من داخلنا.

*** مسئولية الناصح:**

وهنا تبرز مسئولية الناقد عن كلمته..

ولكن .. لماذا يشتد غضبنا على مخاليفنا حتى نحبط بالانفعال جهودنا؟ السبب الرئيس هنا: أننا لم نعط القرآن الكريم حقه من الفهم والتأمل .. فلم نكن على مستواه.. لو كان القرآن حاضرا فى وعينا أبدا لما كان فينا طيور جارحة تنهش بالناب .. وجوه الصحاب!

سئل أحد العلماء:

كيف نتصرف لتلافى البلاء فى أموالنا وأولادنا؟

فقال:

توبوا إلى الله توبة نصوحا. فلما تعجب القوم. قال لهم:

ألم تقرءوا قوله تعالى:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح ١٠ ـ ١٢]

فانظر كيف غابت الحكمة القرآنية من حياتنا فكان هذا التخبط وهذا الضياع.

*** شباب يعقّون أيامهم:**

إذا كان هناك من يعق والديه بالجفاء . . فهناك أيضا من يعق الإسلام بسوء فهمه وسوء تطبيقه.

سأل المدرس الشاب تلميذه: كيف تجرؤ على مصاحبة زوجة عمك؟

ـ قال الفتى: كنت أحمل طفلها ذاهبين إلى الطبيب . .

فقال المدرس: حكمت عليك أن تقطع رحلة طولها خمسة عشر كيلا . . ذاهبا آيبا!

واستجمع الفتى أطراف شجاعته وقال له: وأنت معى!!

وتذكرت عقوبة أبى بكر التى أنزلها بخالد . . عندما وجهه إلى الشام لينتفع بخبرته القتالية هناك . . بدل أن يبدد طاقته فى عمل عابث يشبع الحاكم فيه نزوة الانتقام فى صدره.

ولو أنصف المدرس لقال لفتاه:

حكمت عليك أن تذهب إلى الحقل لتحرث الأرض مع أبيك! . .

ثم لتعفى أمك من المعاناة معه فى الحقل . . وتُعفها أيضا بالستر فى البيت الآمن.

وعندئذ يكون المدرس على فرض صحة موقفه قد استثمر القوة فى مجالها . ثم لقن تلميذه الذى يجأر صارخا بضرورة أن تستر المرأة عورتها . . لقنه درسا فى الحفاظ على عرضه أولا . . لتبقى أمه مصونة السمعة فى البيت بدل ابتذالها فى الحقل . . وتعرضها للسائرين . . وعندئذ يكون قد أسهم عمليا فى تحقيق ما نصبو إليه من عفة واحتشام!

إلى جانب أنه بعمله مع والده سوف يضاعف النتاج . . ليعطينا الفدّان قمحا أكثر نستغنى به عن بعض ما نستوردُه من دول أجنبية . . نُجيد الهجوم عليها بالكلام . . وأحسن ألوان الهجوم. أن نحمل الفأس من أجل حبة القمح ليظل المسلم مرفوع الرأس!!

[حبة القمح ومستقبل الأمة]

وفد «غيلان بن مسلمة» على كسرى فقال له كسرى: أى ولدك أحب إليك؟

قال: الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يعود.

فقال كسرى: مالك ولهذا الكلام. وهذا كلام الحكماء . وأنت من قوم حفاة لا حكمة فيهم - فما غذاؤك؟

قال: خبز البر.

قال: هذا العقل من البر . . لا من اللبن والتمر!!.

معركة التحدى

عَبْر إحدى الإذاعات كان المتحدث يقول:

سبعون فى المائة من غذاء الأمة الإسلامية - تقريبا - يُستورد من الخارج . . وقد تعمدت دولة أجنبية أن تؤخر سفينتين محملتين بعلف الحيوان . . مدة أسبوعين . . فمات الدجاج . . ونفق الحيوان.

وكان لسان حال الدولة الأجنبية يقول:

إن حياتكم أيها المسلمون فى أيدينا . . ولو أننا أخرنا عنكم الطعام شهرا . . لمتم جوعا . .

. فلما قطعت الأمة العربية بترولها عن العرب . . قال أحد الوزراء هناك: أنتم الخاسرون أيها العرب . .

واستضافهُ مسئول عربى فى خيمة من شعر . . وعلى طبق من «العدس» وقبضة من التمر وقال له:

على مثل هذا الطعام العربى نستطيع أن نعيش ونستغنى عنكم!!

وقال المعلق:

ولقد جاءت فريضة الصوم لتعلن:

---

(١) أسد الغابة ط الشعب؟٢٦/ ٣٤٤.

أن المسلم قادر على أن يعيش بخمس فى المائة من طعامه .. بالصوم .. ومطلوب من أمتنا أن تشد المئزر .. وأن تخوض معركة النتاج. صابرة .. بل مصابرة .. بل مكابرة كيد أعدائها..

[الفنان .. والداعية]

أرأيت إلى الفنان كيف يحذق صنعته؟

وها هو ذا المغنِّى:

يتمكن من أنفاسه يكاد يعرف ضمائر مجاليسه . ورغبات معاشريه يقرع مسمع كل واحد منهم باللحن الذى يوافق هواه ويصادق معناه).

فكيف بالداعية لا يجعل من صنعته أمل الراغبين . وملتقى الأذواق.. كيف وهو يملك من اللغة العربية جوهرة يعشو إلى سناها الحائرون (إن للعرب كلاما هو أرق من الهواء. وأعذب من الماء. يمر من أفواههم مروق السهام من قسيها .. بكلمات مؤتلفات. إن فُسرت بغيرها عطلت . وإن بدلت بغيرها استُعصيت).

إن الحياة روضة حافلة بكل زوج بهيج .. وهاهى ذى من كل جنس ولو نغنى وحرام أن تستأثر الطيور المهاجرة .. بينما البلبل الصداح صاحب الدوح ساكت لا يشدو!!

* إمكانات الدعوة :

ذهب وفد من العلماء إلى الحاكم يشكون إليه فساد الزمان .. وغدر الخلان .. وشيوع المنكرات.

فقال لهم: عجبا لكم .. عندكم هذه المنابر .. ثم تَشْكون ما تجدون؟!

إن إمكانات الدعوة بلا حدود .. ومن فوق آلاف المنابر يمكن أن يقول الحق كلمته .. ولو كان هناك قائلون.!

[محاذير على طريق الدعوة]

لما فتح خالد والمثنى بلاد فارس . وتحقق النصر فى معركة الفراض .. انتاب خالدا شىء من الاعتزاز.. فحجَّ سرًا دون أن يُعلم أبا بكر رضى الله عنه. ولما

علم الخليفة وجهه إلى الشام لينضم إلى المسلمين فى معركة اليرموك، فى ظروف صعبة جدا.

وكانت طريقته فى التأديب مفيدة .. استثمر بها طاقته فى مجال عملى. - استثمرها .. ولم يدمرها بالتأنيب أو بالانتقام، كما أشرنا سابقا.

وفى حروب الردة .. هاجم عكرمة الحديقة .. وفيها مسيلمة .. ولم - ينتظر حتى يأتيه إذن الخليفة أبى بكر . ويمده بخالد وشرحبيل. فأرسل إليه الخليفة غاضبا.

لا ترنى وجهك بعد اليوم.

فعلى رغم أن خالدا .. وعكرمة لم يرتكبا إثما .. إلا أن العقاب كان فوريا وحكيما فى نفس الوقت..

وكان المتوقع أن تشفع لهما انتصاراتهما الساحقة .. لكن قرار الخليفة كان حاسما..

بل إن خالدا لما انتصر فى اليرموك .. وفى اللحظة التى ينتظر فى مثلها تكريمه . وعلى الملأ .. يجيئه خطاب بالعزل وتولية أبى عبيدة. ولم يزد على أن قال:

والله لو ولى عمر امرأة لاستمعت وأطعت.. وذاك لعمرى الانتصار الأروع!

ونذكر هنا أبياتا «لعمر أبو ريشة» قال:

يا من رأى فارس اليرموك يخلفه	أبو عبيدة والهيجـــــاء تستعـر
فماـ أحـس بجـرح فـى كرامتـه	ولا ثنى عزمه حقد ولا كـــدر
وصاح فى صحبة الأبرار مبتسما	والمجد فى نشوة الإصغاء منغمر
إنا نقاتل كـى يرضى الجهـاد بنـا	ولا نقاتل كى يرضـى بنـا عمر

وكانت الظروف فى معركة بدر مواتية .. على الأقل بالنسبة للظروف التى أحاطت بحروب الردة:

ففى بدر: كان ﷺ حاضرا . وكانت الآى تتنزل غضة طرية وإذن فالروح المعنوية كانت أعلى.

أما فى حروب الردة فكانت الظروف أصعب:

١ ـ فقد مات الرسول ﷺ . . .

٢ ـ ورفع الأعراب حول المدينة رؤسهم . . متطلعين إلى خيراتها.

٣ ـ بل ارتدت قبائل العرب ولم يبق إلا أهل المدينة . وأهل مكة. وبعض الطائف ونفر فى البحرين.

٤ ـ أضف إلى ذلك تمرد من ادعى النبوة من مثل: الأسود العنسى وسجاح. وطليحة . ومسيلمة.

*** دور الشباب :**

فى هذا الجو المشحون بالتوتر. صمم أبو بكر رضى الله عنه أن يواجه المرتدين. . وعلى أن يُنفذ جيش «أسامة» الذى مثل الشباب في هذا الموقف الصعب.

وأسامة هو ابن زيد بن حارثة رضى الله عنهما وهو مَن ذُكر اسمه في القرآن وحده من دون الصحابة جميعا . .

ولعل اختياره بالذات . . لأن ما يحمله فى قلبه من حماس للثأر لأبيه ربما كان مُعينا على الإقدام.

وقد اختلفت وجهات النظر حينئذ وطالب البعض بالإبقاء على جيش أسامة فى المدينة ليكون قوة دفاع ثابتة عن المدينة.

ولكنه قال:

لا أوقف بعثا أمر به رسول الله ﷺ .

واقترح البعض ـ ومنهم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يغير أسامة بمن هو أكبر منه . فرد أبو بكر الاقتراح محتدا على عمر . وقال له:

ويحك ثكلتك أمك يا ابن الخطاب.. أومِّر غير الذى أمّره رسول الله ﷺ ؟

والخطاب هنا شديد اللهجة .. ويبدو غير طبعى من رجل لين هادئ الطبع مثل أبى بكر رضى الله عنه.. وهو يذكرنا أيضا بلهجة لعلها كانت أشد .. وذلك عندما اقترح عمر وقف القتال على رجاء عودة المرتدين إلى صوابهم إذ كيف نقاتلهم وهم يصلون؟ فما كان من أبى بكر إلا أن قال له:

أجبّار فى الجاهلية ... خوار فى الإسلام؟

رجوت نصرتك ... ففجئتنى بخذلانك؟

ذلك بأن الخطأ اليسير والمعركة دائرة أو وشيكة الوقوع .. أو التردد فى إمضائها .. ربما جر إلى خسارة لا يمكن تلا فيها .. فكان لابد من اللهجة الشديدة .. بالإضافة إلى العامل الأساسى هنا وهو: ولاء أبى بكر لرسول الله والتزامه بأمره.

الشباب فى الطليعة

ولقد كان موقفا مثيرا حقا:

أسامة يركب فرسه. . . . والخليفة يمشى إلى جواره. .

وأسامة على غاية ما يكون من الحياء من مشهد غير مألوف . ولا تساعده أعصابه على تحمله.

وكلما أراد النزول . . منعه أبو بكر. . بل إن أبا بكر ليستأذن من «أسامة» ليبقى له عمر إلى جانبه. . فأذن له. . وإن فقد كان القرار وفى أصعب الظروف بيد الشباب. . ثم . . لم يكن الخلاف بين أبى بكر وعمر ليُعكر الجو بينهما . . وإنما هو الخلاف لمصلحة الحق . . والاحترام المتبادل . . بل الحب المتبادل فوق كل خلاف.

ولقد عاد «أسامة» الشاب المسلم . . منتصرا بعد أن أنجز مهمته . وأدب العصاة فى الشمال: الروم . . ومن احتطب فى حَبلهم من قبائل العرب. وبقى الموقف معلما بارزا يحمِّل شباب اليوم مسئولية النهوض بالدعوة. تحملا بصنعهم فى الصدارة دائما!

سنة الاختلاف

* **تمهـــيد:**

إذا اشتد إعجاب المرء بنفسه.. ساء ظنه بالآخرين..

وإذا ساء ظنه بهم.. أسرع إلى اتهامهم.. ليبقى منفردا برأيه.

وبسبب من هذا الغرور.. وحصاده من هذه الشرور.. تتسع دوائر الاختلاف.. لأنه الاختلاف الخُلُقي.. الذي تحمل كبره قارون..

أما إذا سلمت النفوس من آفات النفس هذه.. كان اختلافها فكريا.. ولم يكن أخلاقيا..

إنه الاختلاف الناشيء عن اختلاف زوايا الرؤية.. وهو إذن: ظاهرة صحيه.

لأنه: اختلاف التنوع.. وليس اختلاف التضاد أو العناد..

ومنه اختلاف سليمان مع داود عليهما السلام فى حكم الغنم التى نفشت فى حرث القوم..

وهكذا قرر علماؤنا.

وبهذا المقياس نقول:

إذا كان هناك أعداء للدعوة من خارج نفوسنا.. يتربصون بنا.. وإذا كانت الحكمة سبيل الدعاة إلى احتواء هذا الكيد.. فإن لنا من نفوسنا غرائز وأهواء.. قد تملى لنا.. لنختلف.. ولا بأس.. ما دام هو الاختلاف الفكرى.. لا الخلقى.. وما دام هو الائتلاف.. المقصود من هذا الاختلاف.. وتلك أعلى صور الحكمة التى نفوت بها على الأعداء أغراضهم.. فإن لم نفعل..

فإن لم يقف طالب العلم.. ومعلم هذا العلم.. كل عند حده الرسوم..

إن لم تتحول مجالس العلم إلى محاضن للتربية قبل أن تكون مدارس للتلقين..

إن لم نفعل فسوف تكون نهايتنا.. بأيدينا.. ولا نلو من إلا أنفسنا..

فلن يبلغ الأعداء منا بكيدهم.. ما نبلغ نحن من أنفسنا بعنادنا وقديمًا قال الشاعر:

لا يقتل الذئب شاة حين يقتلها   وإنما حتفها من غفلة الراعى

قل انظروا...

إن ظاهرة الاختلاف سنة من سن الحياة:

فى البر.. وفى البحر.. فى مملكة الحيوان.. ومملكة الإنسان.. ومملكة النبات يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر: ٢٧: ٢٨].

* فى البحر:

تجد الملح الأجاج.. **وفى الأنهار**: العذب الفرات.. حتى البحار فيما بينها مختلفة:

فبحر البلطيق ملوحته أقل.. لكثرة الأنهار التى تمده بالماء العذب..

لكن ملوحة البحر الميت أشد.. لقلة ما يمتص من الأنهار.. ولشدة الحرارة التى تبخر الماء هناك.

وكان هذا الاختلاف آية من آيات الله سبحانه تستمر بها الحياة ويعيش فى ظلها الأحياء.

* وفى مملكة الحيوان:

قرأت[1] أن قرية إفريقية كانت على حافة الغابة.. ولما أفزعتها النمور قتلتها.

ولكنها فوجئت بالقرود - وكانت النمور - تفترسها - فوجئت بها تقتحم القرية.. وتتسلق أشجارها.. وجدرانها.. بل وشاركت أهلها حياتهم ولأنها قرود.. فلم يكن فى استطاعة أهل القرية القضاء عليها.. ومن ثم قرروا أن

(١) العربى نوفمبر ١٩٩٢.

يهاجروا. . ثم تركوا ديارهم وأموالهم للقرود العابثة!

ويعلق الكاتب قائلا:

[كان يمكن إبعاد النمور بطريقة أخرى غير القضاء عليها لكن العقل البشرى الذى لم يدرك درس «التنوع البيولوجى» ارتكب الحماقة فحقت عليه اللعنة: فالقضاء على نوع من أنواع الحياة يقود إلى استشراء نوع آخر. يكون أيضا مهددا بالفناء نظر الوجوده الذى لا يصبر على طواحين الزمن].

لقد أطلق مؤتمر القمة البيئى الأخير صرخة استغاثة لحماية التنوع الحيوى **Biodiversity**، لكن الولايات المتحدة شاءت ألا تسمعها حماية لتجارتها الرائجة فى منتجات التكنولوجيا الحيوية المعتمدة على الاغتراف بلا حدود من بعض الأنواع الحية والعبث بالشفرة الوراثية للأحياء بغية الحصول على مواد حيوية فلكية الأسعار.

وأن العواقب المحتملة وخيمة على تكامل الحلقة المحكمة لاستمرار الحياة، فقد شجب البيئيون والديمقراطيون والمثقفون بعامة موقف الولايات المتحدة. لكن الغريب أن نجد الكثيرين من شاجبى الموقف الأمريكى بين مثقفينا يمارسون الموقف عينه، وإن بطرق أخرى، وفى مجالات تبدو أبعد. ففهم قضية التنوع الأحيائى كشرط لاستمرار الحياة يتضمن فى جوهره مفهوم احترام الآخر، واحترام الاختلاف، واحترام الخصوصية فى كل شيء. ومن ثم تتقدم مفاهيم التجاور والتكافل والتوازن والتراحم لتكون بديلاً عن صياغات: الصهر، والدمج، والإلغاء، والنفى، والإزاحة. وكل هذه الافتات التى مهما تحلت بالنوايا الحسنة يثبت التاريخ أنها لا تؤدى إلا إلى الجحيم.

وما نجده فى رءوس كثيرين من أهل التنظير نعثر عليه متجليًا الآن بكثرة فى أوساط الأدباء الذين ينتصرون لذواتهم عبر نفى جهود الأخرين والانتقاص من كل الأنواع حت« تسود أنواعهم التى تفتقر حتى إلى الإجماع النقدى أو الجماهيرى. وهذه علامات أزمة ثقافية عميقة الغور ترتدى أقنعة شتى. ولا أحد يريد استلهام الدرس من البيئة التى تمنحنا الموعظة الحسنة وتدق نواقيس الخطر.

. . . حذار، فإن المآل هو النزوح، وطوابير الخروج الكبير إلى البيداء، بينما تكون القردة قد ملأت ليس فقط مدن البشر وموائدهم وأسرّتهم، بل أيضًا صفحات الروايات وسطور القصص وأبيات القصائد.

*** الدرس المفيد:**

وهكذا يتضح الدرس المفيد. . ويبقى أن نلتزم به فى حوارنا:

لقد قال الله عز وجل:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ﴾ [فصلت: ٥٤].

وقد رأى العلماء هنا من دروس الآفاق: سنة الاختلاف. . التى تجعل الكون دارا واسعة لكل ما خلق الله سبحانه. .

ثم وصلوا بهذه الرؤية الكاشفة إلى الحق. . والحق هنا هو:

أن نفتح صدورنا. . وعقولنا لتستقبل آراء الآخرين. . وأن تُحكَم علاقاتنا فى جدالنا بهذه الحقائق التى أشار إليها أهل العلم:

ا - إن الأديان على اختلافها. . فيها خير.

ب - واختلاف الثقافات آية من آيات الله تعالى. . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. .

جـ - والتعايش بين المختلفين سنة ماضية فى الأولين والآخرين **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾** [الحجرات: ١٣].

فلماذا نتصور الآراء المشتجرة: أبيض. . أو أسود. . ثم نتصور الأرض دار حرب. . ودار سلام. . يجعل المسلم مشدود الأعصاب دائما. . تحتويه حروب دائمة. . تحبط طاقاته فى دوامة الصراع. بدل أن تسخرها فى مجالات العمران - فلنستجب لأمره تعالى **﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾** [هود: ٦١].

* أهمية الشورى:

وهنا ندرك أهمية الشورى كحق مكتسب لكل مسلم يمارس بها دوره فى الرقابة والمتابعة. .

تطرح القضية على بساط البحث. . وتدور حولها الآراء. . ويشتجر الخلاف. . بغية الوصول إلى الحق. . وليس هناك من هو فوق النقد. . حتى الحاكم نفسه. .

بل أنه من حقوق الحاكم عليك: أن تنصحه. . وفاء بحق البيعة. .

وقبل ذلك وفاء بحقك أنت. . أنت الذى يطالبك الإسلام بطاعته لو أحسن. . ومن حقك أن تعارضه إذا أساء و لكن بالحسنى.

* من سمات مجتمع الشورى:

يقول الحق تعالى فى وصف الأنصار:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨].

وقد لاحظ أهل العلم: أن توسط قيمة. . الشورى بين الصلاة والزكاة قد تكون دليلا على أهميتها. . بحيث أن الصلاة والزكاة كلتيهما لن تثمر ثمراتها إلا فى مجتمع الشورى الذى تتلاقح فيه الآراء. . ولا تتناطح وتتساند. . ولا تتعاند.

* من فوائد الشورى:

تتلخص ثمرات الشورى فيما يلى:

أ ـ إنها فى جوهرها احترام لآدمية الإنسان.

ب ـ ثم هى اشتراك الأمة فى صنع القرار. حتى يستميتوا فى الدفاع عن ما استقر الرأى عليه أخيرا.

جـ ـ رؤية الحق بأكثر من عين. وفهمه بأكثر من عقل.

د ـ ثم هى تدريب على فضيلة الشجاعة الأدبية التى لا تتستر على الباطل. .

بل تفضحه.. وتمكن للحق أن تثبت أركانه.

هـ - وفى مشتجر الآراء.. تنبرز قيادات جديدة.. يهيئها الحوار.. لتسلم القيادة من بعد.. فى مختلف المواقع.

وما تزال الخبرة الإنسانيه تعمق فى النفوس قيمة الشورى توخيا لثمراتها المباركات.. قالوا:

اجعل سرك لواحد.. ومشورتك لألف.

ذلك: بأن المشورة راحة لك.. وتعب لغيرك. فأكثر منها. فإن من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا.. وعند الخطأ عاذرا..

وذلك كله مشروط باختيار المستشار المحنك.. الأمين.. الواعى.. وإلا.. فلا.

فلا تشاور مشغولا.. وإن كان حازما.

ولا تشاور الجائع.. حتى يشبع..

ولا الغضبان.. حتى يهجع..

ولا الراغب.. حتى ينجح..

القيادة تحرس

مجتمع الشورى

بين يدى غزوة بدر الكبرى كانت هناك لمحة نبوية كريمة، تؤكد احترام كرامة الإنسان ولو كان مشركا.. ورفض أسلوب الإكراه فى سبيل الحصول على معلومات ترضى المحقق! إفساحا للمجال أمام العقول لتقول ما تراه بلا تعسف أو ضغط.. وتنحية لوجهة النظر الواحدة والتى تريد أن تفرض نفسها ولو بقوة السلاح:

فقد ظفر المسلمون ـ قبيل القتال ـ برجلين من قريش. فقالوا لهما:

من أنتم؟ فقالوا: سقاة لقريش.

فلما ضربهما الصحابة بشدة قالا: نحن لأبى سفيان.

وكان هذا الاعتراف المنزوع على هوى الصحابة رضوان الله عليهم. وعندئذ انتهى الأمر. وطوى محضر التحقيق!

أجل.. انتهى التحقيق عند الصحابة.. لكنه لم ينته عنده ﷺ:

فقد كان عندئذ يصلى.. فلما سلّم قال للصحابة.

إذا صدقاكم.. ضربتموهما.. وإن كذباكم ضربتموهما؟!!

صدقاو الله.. إنهما لقريش!!

ثم أصدر ﷺ أوامره بإبطال إجراءات التحقيق.. وعزل القاضى.. وأعاد التحقيق من جديد!

*** من أسرار الموقف:**

١ ـ عندما تفقد الإرادة صلاحيتها للحرية.. يكون وجود الإنسان نفسه معرضا للخطر.

ويعنى ذلك: أن فرض الرأى الواحد يساوى محاولة سلب الحياة ذاتها:

وكل تجمع يحاول فرض اتجاهه بالقوة على خطر عظيم:

سئل ابن تيمية عن قوم يتجمعون ويسمون أنفسهم حزبا. ويتخذون لهم رئيسا. هل عملهم هذا جائز شرعا؟ فأجاب:

«إن هذا التجمع إن كان على ما أمر الله به ورسوله فهو خير. وإن زاد فيه أصحابه ونقصوا كالتعصب لمن دخل فى حزبهم. بالحق أو الباطل. والتعصب على من لم يدخل فى حزبهم بالحق أو الباطل فهو تجمع مذموم لأنه من التفرق الذى نهى الله ورسوله عنه»[1].

وقد حمى ﷺ أمته من هذا المصير الرعيب. عندما وقف إلى جانب الرجل. وأتاح له فرصة التعبير الصادق عن الموقف.

فلما سأله ﷺ ـ وقد أحس بالأمن ـ عن قريش قال:

ينحرون يوما تسعا.. ويوما عشرا.

فقال ﷺ:

القوم ما بين التسعمائة والألف!

٢ ـ إن المستشار مؤتمن.. والمفروض أن نتيح له فرصة الأمن ليصدق المشورة..

من أجل ذلك.. كان لابد من توفر الحرية لتبقى الشخصية قادرة على تحمل مسئولية إيذاء الرأى.. فرارا من العواقب المرة المترتبة على شيوع الضعف الواصل بالأمة إلى التخبط والضياع وعلى هذا المنوال كان نسيج أمتنا عبر تاريخها الطويل:

قيل الرجل من عبس:

ما أكثر صوابكم!! فقال:

نحن ألف رجل. وفينا حازم واحد.. ونحن نشاوره فكأننا ألف حازم!

وفى هذا المعنى يقول بشار:

---

(١) الرسائل والوسائل ج١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.

إذا بلـــغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم[1]

ومن هنا حذر «قيس بن عاصم» ابنه قائلا:

لا تشاور مشغولا.. وإن كان حازما.

ولا تشاور جائعا.. وإن كان فهيما.

ولا تشاور مذعورا.. وإن كان ناصحا.

ولا تشاور مهموما.. وإن كان فطنا.

فالهم يعقل العقل ولا يتولد منه رأى.

إنها خطوة إلى الوراء.. تتحرى وضع الإنسان النفسى.. هل هو فعلا صالح للاستقبال والإرسال؟

فإذا تأكدنا من صلاحيته.. وخلوه من الصوارف الشاغلة كانت للشورى عندئذ فوائدها.

* الإخلاص وحد لا يكفى:

على ساحة الدعوة ناس مخلصون.. لكن الإخلاص وحده - على أهميته.. لا يكفى..

فالمفروض أن يضاف إلى الإخلاص علم كاشف. وتجربة تعين على سلامة الوجهة وسلامة التطبيق..

لكنهم للأسف سعوا إلى الهيجاء بغير سلاح.. فكانوا كما قال علماؤنا: يدا مرتعشة لا تحسن التصويب فى اتجاه الهدف.

وبضاعتهم من العلم قشور لا تغنى عن الحق شيئا.

يدفعون بالراح من يناوشهم بالرماح.. ويحصدهم بقوة السلاح لا يعرفون

(١) قوادم الطير: مقاديم الريش فى كل جناح عشر الواحدة قادمة (المصباح المنير) والمعنى: أنها تقوى بما خلفها.

الحديث رواية، . ولا يفهمونه دراية . .

فترتب على ذلك أمران:

أ - خطأ فى القضية المعروضة حيث طرحوا مسائل هامشية لا تشكل فى باب الدعوة أمرامهما حيويا.

ب - ثم خطأ فى المنهج حيث كان مبدؤهم:

من ليس معنا. فهو علينا

وترتيب على ذلك اعتناق رأى واحد . . يحاولون فرضه بالقوة . . فى صحته يقين جازم بأن الرأى الآخر . . باطل ينبغى إزاحته . . لينفردوا وحدهم بالميدان!

منشأ الخطأ . . .

ومنشأ الخطأ هنا أنهم:

لا يحملون فكرا صحيحا أما ضمائرهم فهى سليمة وأنهم ما أوتوا من إلا سوء الفهم . . لا من سوء الطوية.

من أجل ذلك وقعوا بين شقى الرحى:

بين الهوى السابق . . والتعصب اللاحق.

نتحدث معهم لا عنهم:

وما دام الأمر كذلك . . فمن حق هؤلاء الغافلين علينا أن نلزمهم كلمة التقوى:

أن نتحدث إليهم . . ومعهم . . لا أن نتحدث عنهم وفى غيابهم . . حتى نتجاوز بهم «الشِّبْر الثالث» فى رحلة العلم.

على ما يقول الشعبى:

العلم ثلاثة أشبار:

فمن تجاوز الشبر الأول ظن نفسه أنه أعلم الناس ومن جاوز الشبر الثانى . . أذعن بأن هناك من يشاركه فى العلم.

ومن جاوز الشبر الثالث أيقن أنه من أجهل الناس.

اختلف السلف محكومين بالقرآن.

لقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم،

ومعنى اختلافهم أن صدورهم كانت من الرحابة بحيث تتسع لآراء الآخرين.. ليصلوا فى النهاية إلى الحق فى موضوع النزاع. محكومين فى نفس الوقت بالقرآن الكريم الجامع للقلوب على كلمة سواء.

وإذن.. فلماذا نختلف.. فيما يشبه التناقض.. مع أننا ندين بعقيدة التوحيد وما تثمره من وحدة جامعة.

إن مرد ذلك كما يقرر المربون إلى أمرين:

الجسد..

والمغالاة فى حب الذات..

ومن ابتلى بهما أو بواحدة منهما رفض الحق. وتمنى زوال نعمة الغير.. فى غمرة من غفلته عن شؤم جريمته:

ذلك بأنه بالجسد.. لا يلاحظ أن النعمة من الله تعالى.. والذى لا يمنحها إلا بالحكمة..

ثم هو بحُبٍّ الذات يحاول إحياء نفسه.. بقتل الحق!

ومن مضاعفات ذلك كله:

تقطع الأسباب بين الأحباب على ما يقول الشاعر:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعةً ... بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

الحكمة ضالة المؤمن

لقد اختلف الإجانب اختلافا بينا.. ومع ذلك فقد تبادلوا المنافع.. فلماذا لا نتعلم منهم؟ لماذا لا نتلقف الحكمة التى هى بضاعاتنا تُرَدُّ إلينا؟

لقد نهضت اليابان أخيرا.. ومن وراء هذه النهضه مجموعة من الدول

استعانت بها اليابان:

أتوا بالانجليز.. لتركيب الهاتف.. والسكك الحديدية. وبالألمان.. لبناء المستشفيات.. وبالفرنسيين.. ليضعوا لهم الدستور.. وبالإيطاليين ليعلموهم فن الرسم.. ثم بالأمريكان ليبنوا لهم المدارس.

*** نماذج مصور:**

روى الدارمى فى سننه باب «اختلاف الفقهاء» عن حميد قال:

قيل لعمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه:

لو جمعت الناس على شيء! قال:

ما يسرنى أنهم لم يختلفوا!!

ثم كتب إلى الأنصار:

[لِيَقْضِ كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم]

وهكذا عاشت الأمة أزهى عصورها حين فتّحت الأبواب أمام كل فكر حر محكوم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. فوسِعَ الدين الناس جميعا.. بلا حرج ولا إعنات.

عن عون بن عبد الله قال:

ما أحب أن أصحاب النبى ﷺ لم يختلفوا:

فإنهم لو اجتمعوا على شيء. فتركه رجلٌ تركَ السنة! ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد.. أخذ بالسنة!

وأين هذا ـ كما قيل ـ ممن كان يرفض زواج ابنته ممن هو على خلاف مذهبه الفقهى.. وهو مثله من أمة التوحيد!!

على رضى الله عنه

وعمران بن طلحة

بعد الفراغ من معركة الجمل ـ وكانا ضدين ـ:

[دخل عمران بن طلحة على «علىّ» رضى الله عنه بعدما فرغ من معركة الجمل.

فرحب به وأدناه ويقول:

إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ثم أخذ يسأله عن أهل بيت طلحة فردا فردا وعن غلمانه. وعن أمهات أولاده قائلا:

يا ابن أخى:

كيف فلانة؟ كيف فلانة؟

ويتعجب بعض الحاضرين وقالوا الله أعدل من ذلك:

تقتلهم بالأمس. وتكونون إخوانا فى الجنة فيغضب الإمام ويقول لهما:

قوما أَبْعَدَ أرض الله وأسحقها.. فمن هو إذن إنْ لم أكن أنا وطلحة.. فمن إذن]؟!!(١).

وذات يوم، وبينما كان السيف مجردا بين على وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما.

أنشد شاعر فى مجلس الإمام على:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى. ويبعده الفقر

كأن الثريا علقت بجبينه ... وفى خده الشعرى وفى الآخر البدر

فلما سمعها الإمام قال:

هذا طلحة بن عبيد الله

لقد كان مرد الخلاف إلى العقل.. الذى اجتهد فأصاب.. أو أخطأ.. لكن الحرارة لم تدخل منطقة القلب الذى ظل صافيا.. يقدر الناس أقدارهم.. ويصل أرحامهم.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٢٤ - وحياة الصحابة ج٣/ ١٣.

ومهما سالت الدماء.. فإن صفاء هذه القلوب قادر على أن يعود بالمياة إلى مجاريها.

وهكذا كان سلفنا الصالح:

يصوبون المصيب..

ويستغفرون للمخطيء

وفوق هذا:

يحسنون الظن بالاثنين على سواء صادرين عن هذه القاعدة الذهبية:

المصيب: له أجران

والمخطيء: له أجر[1].

* عليّ في قمة الإنصاف:

ولم يكن اختلاف النظر بقادر على أن يميت في قلوب الصحابة ملكة الإنصاف.. إنصاف حتى أعتى الخصوم..

وما هو ذا أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه.. ينصف الخوارج على ما كان بينهم من خلاف وصل إلى حد المواجهة العسكرية.

سئل الإمام عن أهل الجمل:

أمشركون هم؟

- من الشرك فروا

- أمنافقون هم؟

- إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا.

- فمن هم إذن؟

- إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم».

[أخرجه البيهقى فى السنن ٨/ ١٧٣]

(١) راجع هذا الموضوع بتوسع فى كتاب «أدب الاختلاف» لدكتور طه العلوانى.

معاوية يبكي عَليًّا

وقد وصل الأمر بمعاوية رضى الله عنه أن يبكى يوما من أجل علىّ رضى الله عنه:

[دخل ضرار بن ضمرة على معاوية. فقال له معاوية:

صف لى عليا.. فقال:

أولا تعفينى يا أمير المؤمنين؟ قال:

لا أعفيك.

ولما انتهى من وصفه.. بلت دموع معاوية لحيته فجعل ينشفها بكمه. وقال:

كذا كان أبو الحسن رحمه الله

كيف وجْدُك عليه يا ضرار قال:

وجْد من ذبح وحيُدها فى حجرها.. لا ترقأ لتسكن دمعتها. ولا يسكن حزنها).

[في الحلية ١/ ٨٤ وابن عبد البر فى الاستيعاب ٣/ ٤٤].

ولقد كانت رحابة الصدر. وحكمة التصرّف.. بركة على أمة محمد ﷺ.. وحقنا لدماء أمته أن تسيل هباء.. وشاهدا على ما يجره التعصب للرأى الواحد من فساد..

وبمثل هذه الحكمة أنقذ «واصل» إخوانه من القتل يوما:

[يروى أن واصل بن عطاء أقبل فى رفقة. فأحسوا الخوارج. فقال واصل لأهل الرفقة:

إن هذا ليس من شأنكم. فاعتزلوا. ودعونى وإياهم.

وكانوا قد أشرفوا على العطب. فقالوا: شأنك! فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: مشركون. مستجيرون. ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده.

فقالوا:

قد أجرناك. فقال: فعلمونا.

فجعلوا يعلمونه أحكامهم. وجعل يقول:

قد قبلت أنا. ومن معى. قالوا:

فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال:

ليس ذلك لكم. قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

فأبلغونا مأمننا فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذاك لكم. فساروا بأجمعهم حتى بلغوا المأمن][(١)].

وهكذا يستطيع الداعية المحنك.. الألمعى.. الذكى أن ينقذ الموقف المتأزم

(١) الكامل للمبرد ٢/ ١٢٢.

بسرعة بديهته وحكمة تصرفه:

لما أرسل ﷺ «معاذ بن جبل» عينا له يأتيه بخبر الأحزاب.. اندس فيهم..

وكأنما أحس أبو سفيان بأن هناك «رجلاً غريبًا» بينهم فأذّن فى قومه:

ليعرف كل واحد منكم رفيقه!

وكان من الممكن أن ينكشف أمر معاذ.. وتفسد الخطة كلها.. لكنه بادر فى سرعة خاطفة وسأل هو من بجانبه: ما اسمك!! فأجابه.. وانتهت الأزمة.. ونجحت الخطة!!

وعندما وقع ابن خلدون أسيرا فى قبضة «تيمورلنك» فماذا فعل:

قال للطاغية:

[إنى ألفت كتابا فى تاريخ العالم. وحلَّيته بذكرك. وما أسفى إلا على هذا الكتاب الذى أنفقت فيه عمرى.

وقد تركته بمصر.

وإن عمرى الماضى ذهب ضياعا حيث لم يكن فى خدمتك. وتحت ظل دولتك.

والآن أذهب فآتى بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى أموت فى خدمتك»!

فأطلق سبيله. فقدم مصر ولم يعد إليه!

المؤمن وقاف عند الحق

لما حمل عمر رضى الله عنه سيفه ليضرب من قال إن محمدا قد مات.. قرأ عليه أبو بكر رضى الله عنه الآية الكريمة.. فرجع رضى الله عنه إلى الحق.

ثم قال من بعده لابن عباس رضى الله عنه:

ما حملنى على ما فعلت إلا أننى كنت أقرأ قوله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفهمت منها أنه ﷺ يبقى حتى يشهد على أمته بآخر أعمالها.

فهو قد فهم: أنها الشهادة فى الدنيا. . . فلما ظهر الحق على لسان أبى بكر. . عاد إليه طائعا.

ومعنى ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم. . اختلفوا. . وقد رجعوا فى تقرير آرائهم إلى فهم خاص فى الآية الكريمة. .

لكن. . لما كان الولاء للحق أولاً وأخيراً. . كانت استجابتهم سريعة. . إذا ما تبين الحق.

أخرج أبو داود والحاكم من حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه قال:

[احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل. فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح.

فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال:

[يا عمرو.. صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال. وقلت: إنى سمعت الله يقول:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا][(١)].

أخذ الصحابة بعموم الأدلة الدالة على وجوب استعمال الماء لواجده بغض النظر عن حالته فلم ينتبهوا إلى قوله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦].

وكان عليهم أن يسألوا][(٢)].

---

(١) سنن أبى داود باب: إذا خاف الجنب البرد، وأخرجه البخارى ١/ ٣٨٥ ونيل الأوطار ١/ ٢٤.
(٢) راجع أدب الاختلاف للدكتور طه العلوانى.

* والأمة على نفس الطريق:

ولقد سارت الأمة على نفس الطريق.. فكان الاختلاف المنتهى بالائتلاف.. وإبداء الرأى الذى لم يكن يمنع من تقدير آراء الآخرين.

فبرئوا من الهوى.. ومن التعصب.. وكانوا تلك الطاقة من الزهر والتى كان سر جمالها فى تنوعها وتلون ريحها:

ومن دلائل ذلك:

أ - صلى الرشيد إماما - وهو مُحْتَجِم - فصلى أبو يوسف خلفه.

ولم يُعِد الصلاة. مع أن الحجامة عنده تنقض الوضوء.

ب - وصلى أبو حنيفة والشافعى خلف أئمة المدينة المالكية. ولم يلتزموا بقراءة البسملة لاسرا ولا جهرا.

جـ - وصلى الإمام الشافعى الصبح قريبا من مقبرة أبى حنيفة. فلم يقنت.

- بينما القنوت عنده سنة مؤكدة - فقيل له فى ذلك فقال:

أخالفه.. وأنا فى حضرته؟!

اختلف مالك بن أنس مع أبى يوسف صاحب أبى حنيفه رحمهم الله. فى مقدار الصاع الذى تؤدى به زكاة الفطر.

فقال مالك: هو خمسة أرطال وثلث.

وقال أبو يوسف: ثمانية أرطال.

فاحتج عليه مالك بالصيعان الموجودة لذلك العهد عند أبناء المهاجرين والأنصار بالمدينة.

فرجع الإمام أبو يوسف إلى ما قاله الإمام مالك.

وإذا ابتلى الإنسان بخصم عنيد غير شريف.. فليحذر أن يحاربه بنفس سلاحه.. حتى لا تسرى إليه علة خصمه بالعدوى.. وإنما السلاح اللائق بالمحق هنا:

أن يظل وفيا لدينه الذى يقول له:

***لا تستجب لداعية الحسد..**

ولا تنجرف مع تيار الأنانية وحب الذات وليكن ولاؤك للحق.. مزيدا من الإنصاف.. إنصاف نفسك. من نفسك.

ويكفى هذا اللئيم عقابا أنه حرم من:

١ـ أعز خلق. وهو الصدق.

٢ ـ بعد أن حرم من أطيب لذة وهى: راحة الضمير.

ما معنى هذا

معناه: أن علماءنا هؤلاء الأبرار.. كانوا يدورون فى فلك الحق وحده فارين بأنفسهم من جادبية الهوى.. فكانوا للأمة خيرا وبركة وثراء.. فى الوقت الذى سقط فيه آخرون فى حمأة الغرور فكان من كان من هوان وخسران.

من آثار الغرور.

ليس هناك كالغرور.. مقطِّعا للعلاقات..

وإذا كان من أفراد الناس قبيحا.. فهو أقبح ما يكون لو أصيب به طالب العلم فى معاملته مع من هو أكبر منه: وكيف؟

فقد يصاب التلميذ بداء الغرور على من فوقه.. أو على من تحته.. ولكلٍّ مضاعفاته:

فالغرور على الأعلى مؤدٍّ إلى ما يلى:

١ ـ سيمنع العالم ذخيرته عن هذا المغرور.. فليس أهلالها..

٢ ـ فى الوقت الذى ستأخذ المغرور دوامة الزهو بعيدا عن ساحة العلم.. حين يشغل نفسه بما يظنه عيوبا لدى العالم.. فلا يبحث عن كمالاته.

وأما الغرور على من هو تحته:

١ ـ يترتب عليه: توقف المناقشة.. لأن المغرور يحاول فرض رأيه على

الساحة وحده..

٢ - يكون الانفصال بين المتسبين إلى العلم سبيلا إلى ضياع الثقة التى لا تتم الفائدة إلا بها..

وهكذا تهب ريح الغرور.. فتردى صاحبها..

وقد يكون من ورائها تفوق التلميذ فى مسألة واحدة.. فيظن نفسه قد انتهى من طلب العلم.. مع أن الأستاذ يفوقه فى آلاف المسائل.

ألا إن لحم العلماء مسموم:

وإذن.. فمن أكله بالغرور فسوف يميت الله تعالى قلبه.. وهو جزاء يكافىء ما يترتب على هذا الظلم من آصار وهى:

١ - أن الازراء بعالم واحد.. إزدراء بكل العلماء الذين قد لا يثق الناس بهم.. فى دوامة هذه الحملة المغرضة.

٢ - تسقط هيبة العلماء وبخاصة لدى العامة الذين يجترئون عليهم.

٣ - ربما رفض الجاهل ما يقول العلماء من الحق..

٤ - وإذن فما أفدح خسارة أمة هذا مصير علمائها.

وأحيانا.. وفى حلقة الدراسة قد ينفث إبليس سمومه ليوقع بين أصدقاء العلم.. أى: زملاء الدراسة..

وربما أقنع بعضهم أنه على حد تعبير الهيثمى فى أسنى المطالب.[1].

[بأن ترى نفسك فوق غيرك فى صفات الكمال فتستهزىء بحقه. وتنقص قدره. وتعامله بما لا يستحقه لعزة نفسك عليك. وهوان غيرك عندك.

وباعتقاد ذلك يحصل فى القلب غره. وهزة وفرح وركون إلى المعتقد أو عز فى النفس بسبب ذلك.

فتلك الغرة - الفجاءة - والهزة أى: نشوة الفرح هى خلق الكبر] وهى الباب

(١) حد ١٤٠ تحقيق د. حسن عبد الحميد..

الذى يأتيك منه الريح!

[وهو سريع إلى حملة العلم. لأن أكثرهم يتعزز بعزه وجماله وكماله فيستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم. وهذا محبط لنور العلم. وعظيم نفعه وجدواه فى الدنيا والآخرة]

[زملاء الدراسة يتناصحون.. ولا يتحاسدون].

وفى سيرة الصحابة رضوان الله عليهم.. نماذج فريدة. تعبر عن الإرادة المصرّة على الفرار من مواقع الفتنة.. وإذ يتحاسد الأقران اليوم حين يتبوأ أحدهم منصبا مرموقًا.. فإن أهل الورع من سلفنا كانوا يتناصحون.. إشفاقا على من طلب الإمارة فنَالها: ذكر ابن الجوزى عن نافع الطاحى قال:

مررت بأبى ذر فقال لى: ممن أنت؟.. قلت: من أهل العراق. قال: أتعرف عبد الله بن عامر؟.

قلت: نعم. قال:

فإنه كان يتقرأ معى - يتفقه[1] - يلزمنى ثم طلب الإمارة.

فإذا قدمت البصرة فتراء له. فإنه سيقول لك: ألك حاجة؟ فقل له: أنا رسول أبى ذر إليك وهو يقرئك السلام ويقول لك:

إنا نأكل التمر. ونشرب الماء. ونعيش كما تعيش!

قال: فلما قدمت تراءيت له. فقال: ألك حاجة؟ فقلت: أخلِنى أصلحك الله.

فقلت: أنا رسول أبى ذر إليك.. فلما قلتها خشع لها قلبه.

قلت: وهو يقرأ عليك السلام ويقول لك:

إنا نأكل من التمر ونشرب من الماء ونعيش كما تعيش!

قال: فحلل إزاره. ثم أدخل رأسه فى جيبه. ثم بكى. حتى ملأ جيبه بالبكاء].

---

(١) بلغة العصر.. زميل دراسة.

* تحليل الموقف:

ذات يوم سمعتْ أذناى.. ورأت عيناى ذلك الرجل الذى يقول:

لقد هنأته على صفحات الجرائد.. وأريد أن أقبض الثمن!

وقلت فى نفسى:

إذا لم تكن الوظيفة القيادية مغرمًا.. وكانت مغنما.. فانتظر الساعة!

ذلك بأنها تكون حينئذ مُوَسدة إلى غير أهلها الذين يتنافسون فيها بينما لا ترشحهم أخلاقهم لها..

وقد تسمع عن أحدهم يشترط منصبا قياديا.. إذا عيِّن فى منصب آخر غير مضمون الفائدة!.. فى نفس الوقت الذى لو أنفق فيه كل عمره لما قام بمسئوليات أحدهما!

وإذا كان واحدٌ فقط.. من آلاف المهنئين يطلب الثمن.. فكم تكون مغانم الجاثم على المنصب الحساس ذاته؟!

* مثل من التاريخ:

وإذا أردت الإحساس بالفرق الهائل بين رجلين:

أما أحدهما.. فرغبته فى الدنيا.

وأما الآخر.. فيطلب الآخره..

إذا أردت ذلك.. فسوف تضع أصابعك على واحدة من أكبر عللنا اليوم.. وهى: ندرة القيادة الراغبة فى الإصلاح.. الراغبة عن المنفعة الشخصية الجاعلة من رقى الوطن غايتها العظمى.. بينما يتقدم النفعيون. ليحتلوا المناصب.. ليقودوا الأمة إلى المعاطب..

لما ذهب سمع أحد الملوك.. بدا حزينا كئيبا. وأشفق الناس أن يستولى عليه الحزن فيقتله. ولكنه قال لهم على رسلكم:

فلست حزينا على ذهاب الجارحة.

ولكنى حزين لأنى لم أعد أسمع شكوى المظلوم!

ومعنى ذلك أن هناك مصيبة أعظم من مصيبته.. وهى ضياع حق الظلوم.. وهو عنده فى الميزان أثقل وأهم..

ويعنى ذلك أيضا أن القائد هنا: لم يستكن للمصيبة.. ولم يستسلم لها.. ولم تسترخ إرادته مع أعوانه لتصير الحياة مأتما وعويلا. ولكنه ارتفع فوق مستوى الموقف.. ثم واجه المشكلة بالحل:

لقد أمر كل مظلوم أن يلبس ثوبا أحمر اللون.. ليعرفه.. وهكذا ضاعت الأذن.. لتنوب عنها العين فى أداء وظيفتها.. وبقى الدرس ماثلا فى وعى الأمة التى هى فى حاجة دائمة إلى هذا الطراز الذى جعل سعادت مشتقة من سعادة الآخرين ووفى الأمة من ويلات طلاب المنفعة.. وعشاق الدنيا.

*** أبو حنيفة القدوة الحسنة:**

رفض أبو حنيفة منصب القضاء.. وقد لاحظ بعض الباحثين أن «أبا جعفر المنصور» كان يريد الانتفاع بأبى حنيفة فى موقعه القضائى.. لتقوى قبضته على الحكم بمساندة عالم كأبى حنيفة يشرّف الحاكم أن يكون واحدا من أتباعه!

ومهما يكن من سبب. فقد أصر الإمام على موقفه. حتى بعد أن ضرب.. وابتذلت شيبة شابت فى الإسلام..

وقد أصر الخليفة على موقفه فى أن يولى أبا حنيفة عملا.. أى عمل يسلكه فى طابور أتباعه.. فعينه.. فى وظيفة.. يَعُدُّبها الطوب الذى تبنى به قصور الخلافة.. ورضى العالم الجليل أن يغيب وسط أكوام الطوب.. فاراً بدينه من الأضواء!!

*** الحرص على العلم بين رغبة الطالب. وحكمة المعلم.**

ذهب «هشام بن عمار» إلى الإمام مالك ليأخذ عنه الحديث.

فلما دخل على الإمام. قال له:

حدثنى..

فقال الإمام: لا. . بل اقرأ

فقال هشام: بل حدثني. .

فقال الإمام: بل اقرأ.

فلما أكثر هشام على الإمام نادى غلامه قائلا:

خذ هذا. . واضربه خمس عشرة درة!

فلما جاء به الغلام قائلا: قد ضربته. . قال هشام:

لم ظلمتني؟. لقد ضربني الغلام خمس عشرة درة بغير جرم.

وأنا أطلب القصاص!

فقال الإمام: وما كفارته. .

قال: كفارته: أن تحدثني بخمسة عشر حديثا!

ثم قال هشام للإمام:

زد في الضرب. . وزد في الحديث؟!!

فضحك الإمام. . وقال له:

اذهب. !!

فأنظر كيف كان الحرص على طلب العلم. . والذى استعذب الضرب فى سبيل تحصيله. . ومن مصدره الموثق. .

مكحول الدمشقى

لقد كان الغنى المصرى ذكيا. . وزكيا. .

وكان مكحول الدمشقى له عبدا مملوكا. . ولقد أحس بذكائه أن مكحُولاً يحمل فى قلبه ذكاء العالم. . وصبر القائد الجسور. .

ولولا قيد العبودية لكان شيئا مذكورًا. . وهنا حَمَله زكاؤه. أى صلاحه. . على إطلاق سراحه. فأعتقه. . فبدأ مكحول فى ظل الحرية رحلة جديدة.

ومجيدة. يلخصها هو فيقول:

[عُتِقتَ بمصر. فلم أدَعْ بها علما إلا احتويت عليه فيما أرى.

ثم أتيت العراق. فلم أدع بها علما إلا احتويت عليه فيما أرى: ثم أتيت المدنية فلم أدع بها علما إلا احتويت عليه.

ثم أتيت الشام فغربلتها

كل ذلك أسأل عن النَّفَل. فلم أجد أحدا يخبرنى عنه. حتى مررت على شيخ من بنى تميم يقال له زياد بن جاريه. فسألته فقال:

حدثنى حبيب بن مَسلمه قال: شهدت رسول الله ﷺ نَفَلَ فى البُدَاءة الربع. وفى الرجْعة الثلث] قال الإمام الخطابى:

البداءة: ابتداء السفر للغزو. وإذا نهضت سرية من جملة العسكر. فإذا أوقعتْ بطائفة من العدو. فما غنموا كان لهم فيه الربع - ويشركهم سائر العسكر فى ثلاثة أرباعه فإن هم قفلوا من الغزاة. ثم رجعوا فأوقعوا بالعدو ثانيا. كان لهم مما غنموا الثلث لأن نهوضهم بعد القفل أشق لكون العدو على حذر وحزم].

وهكذا: طوف عالم الشام الآفاق.. وفى ظلال الحرية من مصر.. إلى العراق.. إلى الشام.. إلى الحجاز:

من إفريقيا.. إلى آسيا من أجل حكم شرعى واحد.. ولم تهدأ بلابل أفكاره حتى وجده وعلى مدى سنوات!

وكم فى ديار المسلمين من طاقات مدفونة وعبقريات كامنة.. تنتظر اليد الصناع لتجعل منها عدة للدين وسندا للوطن.

وفى «البوسنة أشبال.. لو وجدوا الرعاية لردوا الجميل إلى الأمة أجمل منه.

* هكذا يكون التلاميذ:

يقول عنهم أستاذهم:

[.. يحرصون على راحتى أكثر من حرصهم على نجاحهم فى امتحانهم. ويفضّلون كلمة منى.. على كلمة يقولها القانون..

أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم فى قلبى. لأنتزعه منه غدا.. وأدعه جريحا..

أفهذه حياة المعلم؟

ماذا يبقى من قلبٍ: فى كل مدرسة منه قطعة؟!

هنيئا لمعلم ليس له قلب!

وياويل المعلم إذا كان إنسانا]!

ويقول عن علاقة التلميذ بوالده ومعلمه.

[.. لقد كنت لهؤلاء - الأساتذة - أكثر من تلميذ:

لقد كنت لهم أكثر من ولد!

الولد يرى فى والده العالم الجانب الإنسانى الذى يشترك فيه الناس جميعا.. وطالب العلم لا يرى منه الجانب العلوى الخالد.. الذى تخلد به صلته أبدا وتعلو..

والولد يشارك أباه طعامه وشرابه.. والمربى يشاركه فكره وشعوره والولد يرث عن أبيه ماله.. والمريد يرث علمه»

إنها صلة النسب..

وصلة الأدب..

وصلة الأدب أمتن فى مقاييس الخلود. أولئك.. الأساتذه:

أبكيهم بدموع قلبى..

وهل تستكثرون علىّ أن أنضح بالدمع ذكرى رجال ملأوا قلبى بالعاطفة التى منها ينبع الدمع؟

وهم غرسوا فيه دوحة الحب التى من ثمارها الوفاء.

* طلاب العلم.. زمان:

سقى الله عهودا كان فيها طلاب العلم سباقين إلى تحصيله.. متنافسين فيه..

١ - كان طالب العلم يملك ذهنا صافيا. وذاكرة واعية.. لم تشوش عليها

مطالب الدنيا . .

فكان أحدهم . . فى دوامة المنافسة قد لا يكون معه ورقة ولا قلم . . فكان يسمع سؤال السائل ثم يحفظه على الفور!

٢ ـ وكانوا يتزاحمون على العالم فى جموع تفوق جموع السلطان:

فمن سائل عن الحساب . . وسائل عن الشعر . . ومن سائل عن الفريضة . . ومن سائل عن الحديث. وكان العالم بحدازا خرا يجود بما حواه قراره من لؤلؤ ومرجان!

٣ ـ كانوا يرصدون لمطالب الدنيا وقتا يسيرا. وطاقة محدودة بالقدره الذى يحميهم من ذل السؤال . .

فإذا حصّلوا رزقا اقتسموه . .

وكان جل الوقت والطاقة مرصودين للعلم . . الذى كانوا أهلا لحضور مجالسه بما ملكوا من أخلاق حميده . . فى مقدمتها أنهم كانوا لا يعرفون الجدل فضلا عن المراء ادخارا لطاقاتهم التى هى مرصودة أساسا للتحصيل قال أبو حازم الأعرج قال:

رأيتنا فى مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها أدنى خصلة فينا: التواسى بما فى أيدينا.

وما رأيت فى مجلسه متمارين. ولا متنازعين. فى حديث لا ينفعنا].

فانظر كيف تراجعت حظوظ النفس ليكون عيشهم كفافًا . . ومشتركا . . ثم ليكون الولاء كله للشيخ وما يدعو إليه من الحق . . وما يترتب على ذلك كله من حب وَوُد يجعل منهم كيانا واحدا . . فى أروع صورة للتعاون على البر والتقوى . . وفى أجلى صورة للتنافس فيما يجلّى الحق. ويرشد الحائر. ويهدى الضال.

* قاعدة الانطلاق:

كانت قاعدة الانطلاق متمثلة فى أصلين:

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ والسنة المطهرة

ولما سلمت القاعدة. . وكان الانطلاق منها إلى الهدف. . تحقق ما تصبو إليه الأمة من كمال:

لما أحس أبو بكر رضى الله عنه بالرحيل. أرسل إلى عائشة رضى الله عنها:

فلما حضرت. . رأته يحتضر. . فتمثلت قول الشاعر:

لعمرك ما يغنى الثراء عـــن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لها:

هلا قلت ما قال الله تعالى:

﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد..﴾

ومع أنها ابنته. . الحبيبة. . والتى يوشك اليوم أن يفارقها. .

ومع ما يثيره البيت من شجن من شأن النفوس أن تعزى نفسها بمثله. . لا سيما. والفلك على وشك الرحيل.

ومع أن المعنى فى ذاته صحيح. . إلا أن قول عائشة رضى الله عنها فيه من المحاذير ما فيه.

فيه رائحة الجزع. .

ثم هو يهيج الأحزان. .

إلى جانب أنه يحبط الصبر. .

ومن شأنه أن يغبش الجو. . جو النقلة إلى الله تعالى. . فكان اختياره الآية الكريمة:

والتى يحسن الاستشهاد بها فى مثل ذه اللحظات العصيبة لتظلل الموقف بما هو لائق به من رضا وتسليم. .

*** السنة المطهرة :**

كان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه إذا جاءه الأحداث من طلبة العلم قال:

مرحبا بوصية رسول الله ﷺ :

أمرنا رسول الله أن نوسع لهم فى المجلس.

ونفقههم الحديث.

فإنهم خُلُوفنا. والمحدثون بعدنا [أى خلفنا]

وكان يقول للحديث السن من المستمعين إليه:

«إذا أنت لم تفهم الشىء فاستفهمنيه فإنك أن تقوم وقد فهمته أحب إلىّ من أن تقوم ولم تفهمه».

وكان ذلك استجابة لوصيته ﷺ فيما رواه ابن ماجه:

«يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون. فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرا».

خـــــاتمة

سؤال ينبغى أن يجيب عنه المسلم:

هل تعيش لنفسك . . أم للآخرين؟

إذا كنت تعيش لنفسك بالتأكيد سوف تستريح. . ولكن ماذا تكون أنت فى الدنيا وأنت متكئ على أريكتك. . وحولك الأتباع يكيلون لك المدح كيلا. . ولا عليك من عذاب جيرانك وخلانك وإخوانك من المؤمنين!!

لا شك أنك ستعيش. .

ولكنك ستعيش صغيرا . . وتموت صغيرا. . والحق: أنك للناس. .

وإذن . . فلابد أن تتعب نفسك . . وعندئذ فسوف تعيش أسدا . . وتموت أسدا. . وسوف تبقى ذكراك حية فى القلوب . . فى الوقت الذى يموت أحياء . . ما زالت تتردد فى صدورهم أنفاس الحياة. .

فليس صحيحا أن القبور فقط . . تحت الأرض . . ولكنها أحيانا تكون فوق الأرض . . تضم جثثا يراها الناس . . ولكنها بمنطق الإيمان فى الأموات.

ويأخذ الداعية نصيبه الأوفى من هذا التعب:

ذلك بأنه مسافر . . غريب . . يحمل عصاه سواحا فى بلاد الله. .

وهذه المتاعب هي نسيج حياته: إنها مستكنة فى جهاده الموصول . . والذى لا يهدأ أبدا . .

ألم تر إلى هذه الموجة المندفعة عبر المحيط الواسع: إنها تظل موجة . . ما بقيت مندفعة . . متحركة . . ولو أنها توقفت . . لو أنها استراحت . . لراحت!

ألا وإن اللصوص من أعداء الإسلام لا ينامون. . فكيف ينام صاحب الحقل. . وعواء الذئاب المتربصين يصك سمعه؟

إن أعداءنا ينوون بنا الشر. .

ويتبجحون بذلك . .

ويخططون أيضا لذلك . .

لا يهمنا . .

وإنما الذى يهمنا : ما مدى إمكاناتهم . . وإلى أى حد أعددنا الداعية المستعد للدفاع والهجوم؟

هذا الداعية المهموم بإسلامه . . والذى لا يكون فقط موجة تمضى . . وتتحرك . . فى بحر أمواجه كالجبال . .

وإنما هو الصخرة التى تربض على شاطئ هذا البحر المتلاطم كالحارس المقيم . . اليقظ . . والذى تنحسر عند قدميه أحقاد المغرضين .

[أنا .. والشيخ الغزالى]*

فى الستينيات . . وكنت ذاهبا لاستلام عملى بأحد معاهد الصعيد قابلت الشيخ محمد الغزالى الذى كان متأهبا للسفر مثلى لإلقاء محاضرة فى بنى سويف . .

قلت له :

أين تفسيرك للقرآن الذى وعدتنا به من قبل . .

قال : أستعد الآن لكتاب عن : الزحف الأحمر الذى يجيش الآن جيوشه . .

قلت له :

وأظن أن هموم الدعوة لن تدعك أما تفسر القرآن خلف مكتبك الوسيم فى بيتك . . لأن الهموم التى تحملها سوف تلاحقك . . وسوف تواجهك الحياة كل يوم بجديد . . وستظل دائما حاملا سلاحك خائضا فى معارك لا تنتهى . . ولن يتيسر لك وقت للتفسير النظرى . .

وإنما سوف تظل هذا التفسير العملى الواقعى . . اليومى . . ويكفيك هذا شرفا ! !

والأصل فى ذلك:

والأصل فى ذلك فى سيرته ﷺ:

فعندما قيل له ﷺ: قم الليل .. ظل قائما .. آناء الليل .. ثم أكد ذلك قائلا: مضى عهد النوم!

ذلك بأنه استشعر عظمة المسئولية الملقاة على عاتقه فاستصغر كل مجهود يبذل فى سبيلها...

فواصل المسير.. رغم وعورة الطريق .. متسلحا بصبر الداعية..

وليس صبر الداعية هو ذلك الاستسلام الخانع الراضخ لسلطان الواقع .. وإنما هو صبر التوثب .. والقوة التى لا تعرف الكلل .. والعطاء الذى لا يعرف الملل.

زاد الطريق:

ولأن هذه المهمة خطيرة .. فقد كان لابد من هذا الزاد .. الذى يستعصى على النفاد: وهو سلاح الصبر.. والصبر الجميل .. الذى لا يرف حوله جزع .. ولا ينقصه طمع..

هذا الصبر .. هذا السلاح الذى يواجه به الداعية كل هواجس القعود وتحديات الواقع: إنه صبر على:

١ ـ على شهوات النفس.

٢ ـ وقلة النصير.

٣ ـ وانتفاش الباطل.

٤ ـ وبُعد الشقة.

٥ ـ ثم بطء النتائج.

إنها التحديات المتناثرة على جانبى الطريق .. عبر الرحلة الطويلة: ثم إن له دوافع تهتف به من داخل نفسه ليستريح.. ومغريات من بين يديه ومن خلفه لعله أن يساوم عليها..

لكنه يظل ماضيا . . والقرآن الكريم يشد أزره قائلا :

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

يعنى: أد الواجب . . . ويكفى هذا . .

والنتائج من بعد على الله تعالى.

[الداعية .. والأدعياء]

هذا هو قدر الداعية فأين منه الأدعياء؟

إنهم أولئكم الانتهازيون:

الذين ينظرون إلى الحياة نظر الصياد إلى الفريسة: يتحين بروزها . . لينقض عليها . . متسلحا بقيم ينتحلها انتحالا . .

ومن آثار ذلك:

أ ـ ذهاب الثقة بهذه القيم.

ب ـ ثم سوء الظن بالأخيار وبالأشرار جميعا وعلى سواء!!

جـ ـ ثم هذا التمزق فى كيان الانتهازى والذى لا يرشحه لعمل كريم . .

وتأمل قوله تعالى فى سورة النمل:

﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾

ثم حاول أن تستشعر هذا التمزق . . تمزق الكافر: الذى يرى الشمس فى كبد السماء ساطعة . . ولكنه: ينكرها . . يجحدها . . فهو فى عراك مع نفسه الذى تكذبه من داخله . . ولسانه الذى ينضح بالافتراء.

ثم احكم فى النهاية بلا تردد بأن هذا اللون من الناس لا يحس بسعادة . . .

وكيف يحس بها وهو الذى لم يعد قادرا على تذوقها . . بعد أن صار بناء منقوضا . . غير صالح للسكنى. إنه ذلك الرجل الذى وصف نفسه قائلا:

أرى الليالي أسرعت في نقضي   أخذن بعضي وتركن بعضي!!

من صور الجحود

ومن صور هذا الجحود.. ما تنبئ عنه تلك المعركة الدائرة بين الدعاة وبين هؤلاء الانتهازيين الذين لا يطيقون رؤية الحق.. الذي فيه موتهم .. ومن ثم يحاولون تنحيته برميه بكل نقيصة..

ولكن لا بأس أن يحاول المبطلون تشويه الدعوة في شخص الداعية..

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]

ودعهم يهرفون قائلين:

إن الحق مر ..   ألا وإن الدواء كذلك.

محيِّر ....   وإن الحسن لكذلك.

مكلف ...   والحرية كذلك..

وكما يقول الرافعي:

[إذا لم يكن البحر ... فلا تنتظر اللؤلؤ..

وإذا لم يكن النجم.. فلا تنتظر الشعاع.

وإذا لم يكن الورد .. فلا تنتظر العطر..

ونقول: وإذا لم يكن الحق .. فلا حياة .. ولا أحياء..

وهكذا يظل الداعية في ضمير الأمة:

زادا .. لا ينفذ على كثرة الآكلين.

ولا يفسد .. على تطاول السنين.

سيظل: حقا .. لا يخفى..

وصوتا .. لا يخفت ..

وضوءا .. لا يخبو!

ولكى يستمر الداعية ماضيا على هذا المستوى العالى . . فلابد له من وقود من الإيمان . . والصبر . .

إن النائمين فى الظل من الكسالى . . لا يحتاجون إلى مزيد من الوقود . . لأنهم لا يتحركون . .

واستمع إلى قول المجربين الذين يقررون:

أن النائم يحتاج لمقدار أقل من «السكر» و «الأكسجين»

أى: من الطاقة . . .

ولكن الصاحى يحتاج لقدر أكبر . .

ولو قدر لهذا الصاحى أن يعيش مائة سنة . . فإن النائم يعيش أضعافها . .

ولكنه الفرق بين الحياة . . القصيرة . . العريضة . . الخصبة . . وبين الحياة الممتدة . . الضيقة . . العقيم.

أسباب صعوبة مهمة الداعية

تتم عملية التمثيل للشجر .. بالنهار .. ثم يستريح بالليل.. وكذلك الطيور:

بعد كدح النهار تعود مع المساء إلى أوكارها .. وكذلك الإنسان: جعل الله تعالى له الليل لباسا. . والنهار معاشا.

ولكن المدنية الحديثة عكست القضية:

فسهرت طول الليل .. فى علب الليل؟!

ثم نامت جُلّ النهار..

ومن ثم: اختل مزاجها .. فاعتل فكرها..

لما سارت على رأسها.. وعكس اتجاه الرياح .. ثم صار الأمر على ما قال ابن عربى فى وصف عصره:

زمان شديد...

شيطانه مريد...

وجباره عنيد ..

علماء سوء: يطلبون ما يأكلون.

وأمراء جور يحكمون بما لا يعلمون.

وصوفية صوف:

بأغراض الدنيا متشحون].

[الربان الماهر]

وفى هذا الجو المعتم تكون نصيحة الداعية المخلص:

كموجة تنكسر على صخرة صماء.. أو دمعة حائرة .. ضائعة فى بحر زاخر: لا يسمعه أحد .. ولا يراه أحد!؟

فماذا يفعل إذن وقد كلف أن يحارب فى جبهتين:

عقيدة خربة .. من ورائها الهوى..

وأفئدة هواء .. خالية من عناصر الخير..

ثم هو مطالب:

١ ـ بأن يواجه المنكر مباشرة..

٢ ـ حتى يترك العاصى المنكر.

٣ ـ بل حتى يزهد فيه..

٤ ـ لا .. بل الفرار من مخالطة العصاة؟؟

إنه ليس همًّا واحدا .. ولكنها هموم ثقال..

[مكر الأعداء]

وفى نفس الوقت الذى يدعو فيه إلى الصدق .. والعفة ،، يتصدى له الكذابون الآكلون السحت .. فى محاولة للقضاء عليه..

لماذا؟

إن عقدة النقص تملى عليهم .. أن ينتقموا من هذا الطاهر فى البيئة الفاسدة..

إن طهر الداعية ليذكرهم بخبثهم . ومن ثم ينقضون عليه ليريحهم من عذاب الضمير..

لقد أصبحت محاسنه .. هى عقدتهم..

وعندئذ يدركون أن تفوقه ...واستئثاره بحب الناس إنما هو بسبب من طهره ونقائه .. من أجل ذلك تبدأ حملة التشويه.

[من خصائص الداعية]:

إنما يؤثر الداعية فى المدعو إيجابا وسلبا بسبب مما يلى:

١ - الحقائق التى يدعو إليها.

٢ - أسلوب عرضه لهذه الحقائق.

٣ - هدفه من دعوته..

٤ - درجة التزامه بما يدعو إليه.. أو ينهى عنه.

٥ - ومع هذا وفوق هذا:

لابد أن تكون له همة عالية..

وثقافة واسعة.. لا من بطون الكتب وإنما من مجالسة العلماء..

إن القاعدة تقول: لأنك تعرف أقل.. فإنك تظلم أكثر!.

إن الله تعالى ليحب البصر النافذ. عند ورود الشبهات.. والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

البصر النافذ إلى الأعماق.. متجاوزا القشرة البادية ليستقر هناك فى الأعماق.. إن الشهوات مزيِّنة. وكل واحدة تستدعى الأخرى.. لأن لها طعما شهيا.. والطبع يساعد عليها..

فلابد من العقل.. ومن البصيرة معا.. ليتفادى الداعية عثرات الطريق..

فإذا كانت له إلى جانب ذلك همة عالية فقد استجمع خصائص الداعية كما يجب أن يكون. إنها همة الرجال.. ومنهم أبو العباس.. الذى تقلب فى فراشه ليلا.. فسألته أمه عن ذلك فقال:

لأن لى همة تخرق الجبال!

ومنهم ذلك الذى قيل له: لنا عندك «حويجة» فقال: أطلب لها رجيلا!!

وذلك الذى قيل له:.

جئناك فى حاجة لا ترزؤك. فقال: هلا طلبتم لها سفاسف الناس؟!!

إنها الهمة التى تشكل طوق النجاة إذا ما اضطرب السفين حتى إذا تحركت الضفادع .. وتجاوبت أصداؤها فى الليل البهيم .. كان صوتها دليلا عليها .. فاندفعت حية البحر لتنقض عليها!!

وإذا كنا فى زمان تدعو كل أمة إلى كتابها وتبذل كل ما فى وسعها داعية إليه .. فكم يكون الداعية المسلم مسئولا عن حماية الناس من أنفسهم ومن شياطينهم ..جاعلا من نفسه فداء لإنقاذهم..

* إستدراك:

ولكى ننصف الداعية .. فلابد أن نذكر المدعوين بمسئوليتهم معه.. إن الجسم قد يعتل يوما . فيختل الجهاز الهضمى.. ومن أجل ذلك لا ينتفع الإنسان بطعام.. وبنفس القوة نقول: بعض الناس يعرضون .. فلا يستمعون إلى النصيحة .. لأن قلوبهم فى أكنة من شهواتهم ..

وإذن.. فالعيب فيهم .. وليس العيب فى النصيحة ولا فى الناصح الأمين!!

وآخـــــر دعونا

أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ١٣٧٧٩ / ٩٧

I. S. B. N. 977 - 5826 - 44 - 6